سمير قسيمي

سلالم الطوارئ

[منشورات البرزخ]

المتوسط

سمير قسيمي: كاتب جزائري من مواليد ١٩٧٤. في رصيده تسعُ روايات، منها: «الحالم»، «يوم رائع للموت»، «هلابيل»، و«حب في خريف مائل»؛ حصد بها اعترافا تجاوز العالم العربي. يعدُّ واحداً من أبرز الأصوات العربية حضوراً في جيله. تُرجمت أعمالُه إلى اللُّغة الفرنسية، وتحصَّل على عددٍ مهمٍّ من الجوائز.

[منشورات البرزخ]
المتوسط

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

© منشورات البرزخ، للطبعة الجزائرية، 2019.
الإيداع القانوني : ماي، 2019.
ردمك : 978-9931-04-067-5.

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار.- تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Salalem Trular *by* "Samir Kacimi"
Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: سمير قسيمي / عنوان الكتاب: سلالم ترولار
الطبعة الأولى: ٢٠١٩.
الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-05-5

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

سمير قسيمي

سلالم تورلار

[منشورات البرزخ] المتوسط

إهداء..

إلى زوجتي وابنَيّ .. طريقة ساذجة لأكتب حبّي.

"كافحي لكي يستمرّ جسدي وروحي في أبنائي، وليستمرّ كفاحي من أجل العيش والحياة والثقافة والإنسان".

عمار بلحسن

"أحسن هدية تُقدَّم لأرواح شهدائنا هو في احتفال، يكون فيه الشعب معتزّاً بماضيه ومطمئنّاً على مستقبله".

عبد الحميد مهري

"يرى الثّوّار التاريخ على أنه نتاج روحهم، حيث يتمّ صنعه من سلسلة متواصلة من الشَّدّ والجذب العنيفَيْن مع أطراف أخرى في المجتمع - إيجابية كانت أو سلبية - وتصل تلك المُشادَّات ذروتها عند الثورة الحتمية".

أنطونيو غرامشي

أبواب

لا تطرق الباب بقوّة، فأنا غير موجود هنا.

مالك حدّاد

"عزيزي ..

كيف أصف لكَ الأمر؟..

لن نختلف في مسألة أنكَ تكتب بشكل مختلف. أسلوبكَ غريب، وقصصكَ أغرب. ولكنّ ما أرسلتَهُ لي رغم جمال الفكرة لا يرقى إلى أن يكون رواية. أعتذر أنني أواجهكَ بهذه الحقيقة: لقد فقدتَ موهبتكَ كلها، ولم يعد ما تكتب يصلح ليكون رواية.

بالطبع سننشر العمل، إذا دفعتَ مقابل نشره، ولكنْ، تأكّد أنه سيكون نقطة سوداء في مسيرتكَ.

هل يمكن أن أكون صريحاً أكثر؟ أعتقد أنني أدين لكَ بذلك، ولا يجب أن أكبح نفسي مجدّداً وأنا أرى أنكَ تُضيِّع ما أنجزتَهُ سابقاً، لتخوض هذه التجارب من الكتابة المفكّكة. ما حاجتكَ لهذا الخيال كله؟ أنتَ تملك لغة جميلة وأسلوباً مدهشاً، والأهمّ أن لديكَ قرّاء في العالم كلهم متشوّقون لقراءة جديدكَ بعد أن مضى وقت لم تنشر فيه شيئاً. بمقدوركَ أن تكتب ما يحبّ الناس قراءته بسرعة وبمتعة. صدِّقني، لا أحد يملك وقتاً للتركيز على ألغازكَ المتشابكة.

اكتبْ عن الحبّ مثلاً، يحبّ القرّاء هذا النوع من الكُتُب، عشيقان يرويان قصّة حبّهما المستحيلة. اكتبْ عن الجنس، هذا موضوع يحبّ الناس تناوله، وإن ادَّعوا عكس ذلك. تخيّل رواية إيروتيكية تكسر بها المتوقَّع، فقد سبق أن قرأنا لكَ مشاهد مثيرة في الجنس، لم يُكتب مثلها. أنتَ تملك هذه القدرة في جعل قرّائكَ ينصهرون مع ما تصف من تخيُّلات جنسية لذيذة.

صحيح أنني ناشركَ منذ أوّل رواية لكَ، لكنّ هذا لا يعني أن أقبل بنصوصكَ المتهوِّرة كلها، أحتاج لأبيع ما تكتب حتّى تستمرّ علاقتنا لوقت أطول.

ما زلتُ مؤمناً بكَ، وأعلم أنكَ ستفكّر في الموضوع بجدّيّة.

أرجوكَ، عزيزي، فكِّرْ في الأمر جيِّداً، وتخلَّ عن نشر هذه الرواية.

في انتظار ردِّكَ.

ناشركَ وصديقكَ دائماً".

الجزائر العاصمة

"ما الذي يحدث معكَ؟.

هذا عاشر إيميل أُرسله إليكَ ولا تردّ.

أُدرك أنكَ غاضب لتخلُّفي عمّا اتّفقنا عليه في البداية، ولكن الكتابة كما تعلم لا مواعيد لها.

أجِبْ على الهاتف، على الأقلّ لأطمئنّ. إنه نصّ ممتع، ستُحبّه.

أتمنّى أنني بمجرّد أن أضع له عنواناً، تكون قد فتحتَ هاتفكَ.

محبّتي.

سمير قسيمي".

....

ترولار / الجزائر العاصمة

الفصل الأوّل

في شهر أوت/أغسطس من عام لا يذكره أحد، حدثت هذه القصّة. أغلب الظّنّ أنها بدأت في الرابعة وأربع وثلاثين دقيقة، فجر الخامس والعشرين من الشهر، وقتما صحا جمال حميدي فجأة على صوت مواء قطّة رمادية، عرف لاحقاً أنها ليست من قطط الحَيّ.

ومهما بدا الأمر غريباً، فقد شعر بمجرّد استيقاظه بأن ثمّة ما سيحدث، وأنه حين يحدث ما يشعر به، سيتباهى كعادته على زملائه البوّابين قائلاً: "انتابني يومها شعور غامض بحدوث الأمر".

في الحقيقة، لم يكن يملك غير هذه الجملة الذّكيّة ليقطع بها حديثهم في كل اجتماع يدعوهم إليه، بِعَدِّهِ نقيب البوّابين في البلد، وهو منصب محترم، لو لم يكن يعني، في النهاية، أنه مجرّد بوّاب.

كان جمال حميدي في السابعة والخمسين من العمر، ولم يعد يفصله عن التقاعد إلا خمس سنوات، قرّر أن يقضيها نقيباً مثلما فعل في الأعوام الخمسة عشر السابقة، فقد بدا الوضع مذهلاً ألّا ينتبه إليه أحد من زملائه ويزاحمه على منصبه، أو على الأقلّ أن يَظهر أيّ مرشّح آخر، ليحلم بمنصب العميد، حتّى حين وقع له ذلك الحادث الأليم، وأفقده القدرة على الحركة، أو لمّا أُصيب قبل شهر بنوبة قلبية، بسبب مُقوٍّ جنسيّ

أخذه ليتذكّر أمجاد العشرين مع منظّفة شابّة، التحقت بطاقمه المتكوِّن في العادة من منظفّات عجائز.

كان جمال حميدي يملك ذاكرة صوتية، اكتسبها من تلصُّصه الممتدّ لسنوات على سكّان عشرات المباني التي اشتغل فيها. كان يعرف، وبالتفصيل المملّ جدّاً، كل ما يحدث في العمارة المكلَّف بها. ثمّ سرعان ما امتدّ فضوله، بسبب السأم من معرفة أسرار الجيران كلها، إلى محيط عمارته من حجر وشجر ونبات وحيوان. ما جعله يوقن حين سمع صوت القطّة أنها ليست من قطط حَيِّه الواقع في مدينة زُرعت في الريف، بأرض كانت ذات يوم بستان كروم، تسمّت تبرّكاً برجل قُتل من أجل الوطن اسمه زموري. وكانت عمارته التي يسكن في طابقها التّحتيّ، بُنيت على أنقاض مصنع خمور، يذكره الناس كما يذكرون الله مرّة كل حين.

استيقظ جمال حميدي متعرِّقاً، فقد كان الجوّ حارّاً ورطباً. ولم يكن في غرفته مكيّف هواء ولا مروحية، فبعد أن طلّقتْهُ زوجته إثر حادث مروِّع، جعله مُقعَدَاً ونصف عِنِّين، حملت معها كل ما استطاعت من أثاث. وما كان ليجرؤ ويمنعها خوفاً من أن تشيع بين زملائه ما أصبح يعاني منه إيره من خَدَر، فقد كان يخشى أن تؤثّر تلك الأقاويل - التي سيدّعي بنحو لا شكّ فيه أنها غير صحيحة - على مستقبله كنقيب عامّ لبوّابي البلد.

بعد جهد، أجلس نفسه، ثمّ سحب جسده الضخم، وتمكّن من بلوغ كرسيّه المتحرّك الذي كان قد وضعه بجانب السرير. حرّك كرسيّه رغبة في الخروج من غرفة نومه إلى المطبخ، ليعود منه بقارورة ماء باردة، من دون أن يهتمّ بإنارة الغرفة أو الرواق.

وهو يهمّ بذلك، وقبل أن يخرج من الغرفة، لفحتْهُ نسائم هواء، لم يفهم

من أين أتت. كان متأكّداً من أنه أغلق شبابيك ونوافذ شقته، وما عدا أن يغطّ في النوم. وإذ ذاك، قرّر بعد أن استحالت عليه الرؤية أن يُشعل مصباح الغرفة. وما كاد يفعل حتّى تملّكتْهُ الدهشة. فلسبب لن يشرحه الكاتب طوال هذه القصّة، ولن يحاول التمهيد له، اكتشف جمال حميدي بمجرّد ضغطه على زرّ الإضاءة أن نافذة غرفة نومه وبابها اختفيا.

هكذا، تحامل على نفسه، وراح يجوب على كرسيّه أرجاء شقّته ذات الغرف الثلاث، مذهولاً غير مُصدِّق لما كانت تراه عيناه. اختفت الأبواب والنوافذ كلها، وحلّ محلّها فراغ صادم، أهدر بوجوده كلمات تفيد في العادة تبرير ذلك الشعور التافه والخرافي المُسمّى "الأمان".

للحظة شعر بشيء يشبه الحرج وهو يتخيّل عدد المارّين بمحاذاة نافذته ينظرون إليه، يحدِّقون في جسده المربع شبه العاري، بكرشه الضخمة، كثيفة الشَّعْر، حين كان ممدّداً على سريره، يغطّ في النوم قبل قليل.

شعر بذلك للحظة واحدة فقط، لأنه كان مُدرِكاً أنه كائن لكثافة شَعْر جسده لا يستطيع أيّ واحد، مهما بلغت درجة تركيزه، أن يعرف إن كان عارياً أم لا.

أحسّ بالغبطة وهو يفكّر في ذلك، فأخيراً أصبح لبعض عيوبه محاسن ما. فقد كان جمال حميدي صورة واضحة لما يمكن أن تبلغه الطبيعة من تهوّر، أو إذا شئتَ، صورة لما قد يمكن أن يصير عليه الإنسان لو توقّف خطّ التّطوّر عند نقطة شبيهة بالنقطة التي توقّف فيها عنده.

في البداية، فكّر بأن الأمر قد يكون نتيجة عرضية لتلك الكوكتيلات كلها التي كرعها قبل أن ينام. فقد حدث أنه بالأمس وبعد أن انتهى دوامه، قرّر أن يحتفل بعيد ميلاده الذي لم يكن قد حان بعد. فمنذ شلله النّصفيّ،

أصبح جمال حميدي يُكثر من التّأمّل الفارغ المفضي إلى لا شيء، وهو نوع من التّأمّل تلقّنه مِن تلصُّصه على عدد من الكائنات الطَّيِّعة، اعتاد رؤيتها وقتما كان بوّاباً مبتدئاً في بناية بيضاء بأعالي العاصمة، تحمل يافطة كبيرة، كُتب عليها "وزارة الثقافة".

كان حينذاك شابّاً بمقدوره الانتصاب بطوله كله الذي لا يتعدّى المتر ونصف المتر. وكانت كرشه رغم كبرها أكثر تماسكاً ممّا هي عليه الآن، بحيث كانت تشبه حدبة بأبعاد واضحة، شعر أحياناً أن الكثير من الناس يحسدونه عليها، خاصّة حين يرونه يتحدّث، مريحاً كلتَي يَدَيْه عليها، وكأنها سطح مكتب.

في تلك الفترة من حياته، كان فخوراً بعمله في وزارة الثقافة. فكلّما سأله أحدهم عن وظيفته ردّ بلا تلكّؤ: "موظّف في وزارة الثقافة". كان يقول ذلك من دون أن يقصد ما قد يتصوّره الناس: بذلة رخيصة، ربطة عنق، حذاء صيني مبتذل، ومكتب تملأ أدراجه الأكاذيب. لم يكن جمال حميدي من هذا النوع من الموظّفين الذين كان يحتقرهم لسبب "غامض جدّاً" لم يستطع إدراكه رغم تأمّله الفارغ، فطوال أزيد من عشرين سنة رفض أيّ نوع من الترقية، مفضّلاً البقاء مجرّد بوّاب لبناية، يزعم أصحابها أن بين جدرانها تتشكّل روح دولة وُلدت أصلاً بلا روح. ومن هذا المكان، وفي هذه الوظيفة، كان شاهداً على التّطوّر المدهش الذي قد يعرفه الخَلْق. في النهاية، لم يكن داروين مخطئاً في تصوّره لسلسلة تطوّر، تتيح لحيوان طفيلي أن ينتهي إلى كائن بشري سَويّ، مع فارق أنه في هذا المكان لم يحتج جمال حميدي إلى مليارات السنين التي احتاجتها الخليقة ليشاهد هذا التّطوّر. كانت تكفيه سنوات قليلة أحياناً ليرى بعينَيْه كيف يمكن لحيوان وحيد الخلية أن يصبح كائناً بشرياً، وكيف يخدمه لاحقاً تاريخه الطّفيليّ، ليصبح نصف إله.

بفضل تأمّله الفارغ المُكتسب خلال معاقرته لمنْ عرف لاحقاً أنهم يسمّون مثقّفين، وبسبب إصابته بالشلل أدرك حقيقة ما كان ليدركها لولا إصابته واضطراره على قضاء الكثير من الوقت مع نفسه بعد الدوام، والذي بالمناسبة كان حبساً انفرادياً من نوع ما. فمرّة، قبل أن يرى الصورة كاملة، وقبل أن يدرك الرسالة النبيلة لمهنته، سأل عن السبب الذي يجعل البوّاب مضطرّاً للبقاء بمدخل العمارة، داخل غرفة بائسة، تشبه الصندوق، لا يفعل شيئاً غير النظر في وجوه كل مَنْ يدخل ويخرج. لم تكن بالطبع مسألة تفحّص وجوه الناس أو مراقبتهم أو التّلصّص عليهم ما دفعه ليطرح هذا السؤال على مسؤوليه، حتّى إن بقاءه جالساً أو واقفاً ثماني ساعات يومياً بمدخل العمارة، لم يؤرّقه يوماً، بقدر ما بعث نوعاً نادراً من السعادة في قلبه، وشكلاً خبيثاً من مرض الدوالي في ساقَيْه.

كان جمال حميدي قد بلغ عامه السابع والخمسين، ولكنه بسبب الحركة العرجاء للكون لم يشعر بمرور السنين كأيّ رجل يبلغ هذا العمر. فقد وُلد في التاسع والعشرين من فبراير، وهو يوم لا يعود إلا مرّة كل أربعة أعوام، لهذا أو لأسباب أخرى، ساد في نفسه اعتقاد مضحك في أنه يستقبل من العمر أكثر ممّا استدبر.

بدأ الأمر بمزحة سخيفة، أطلقتها أُمّه في أوّل حفلة عيد ميلاد أقامها لنفسه. كانت تفتخر بسذاجة بأن لديها ابناً لا يزيد عمره إلا عاماً واحداً فقط كل أربعة أعوام.

ربّما كان هذا قبل أربعين سنة، وقتها كان جمال حميدي كائناً أكثر وسامة ممّا أصبح عليه لاحقاً. فلم يكن وهو في السابعة عشر من العمر، قد أدرك حقيقة أنه مجرّد قزم بدين، لن يزداد طوله عمّا كان عليه حينها. ولم يكن يتصوّر بأن الشَّعْر الذي بدأ يكسو ذقنه، سيمتدّ إلى وجنَتَيْه ومنخارَيْه

وأذنَيْه ورقبته وصدره وسائر جسده، حتّى صار المسخ الذي أصبح عليه الآن. كما لم تكن قد بدأت تصدر من جسده تلك الروائح الغريبة التي أحالتْهُ إلى ما يشبه خنزيراً وحشياً يسير على قَدَمَيْن.

في أثناء تأمّله الفارغ المفضي إلى لا شيء، أدرك جمال حميدي أنه رغم أعوامه السبعة والخمسين، لم يحتفل بعيد ميلاده إلا أربع عشرة مرّة فقط. وبعملية حسابية بسيطة، احتاج كما اعتاد دائماً لإجرائها إلى آلة حاسبة لجهله التّامّ بالحساب، أدرك أنه مدين للسعادة بأربعين حفلة عيد ميلاد، وهو دين وَجَب قضاؤه قبل أن يحين تقاعده. ثمّ بعملية حسابية أكثر بساطة، استعمل فيها الآلة الحاسبة أيضاً، قرّر أن يحتفل كل سنة بستّة أعياد ميلاد إضافية، طرح منها بالأمس فقط أوّل حفلة عيد ميلاد من دين السعادة عليه.

جرى الأمر كما يلي: اشترى جمال حميدي تورتة فواكه وقارورَتيَ ماء غازي وستّ عبوات بيرة وقنّينة نبيذ رخيص، ممّا أصبح يُستورَد من بلد مجاور. ولأنه كان مُدرِكاً بحقيقة ألّا أصدقاء لديه، فقد اكتفى بوضع قائمة ضيوف، تضم بوّابين يعملون تحت إشرافه ومنظّفات عجائز ممّنْ يصلحنَ ليكنّ فرّاعات لإخافة الغربان.

في البداية، ضمّت قائمته اثنَي عشر اسماً، ولكنها، في النهاية، تقلّصت إلى ثلاثة أسماء لا غير: "موح بوخنونة" و"إبراهيم بافولولو"، وبالطبع زوجته السابقة "أولغا". مع إدراكه التّامّ أن احتمال تلبية طليقته لدعوته، هو نفسه احتمال أن يزداد طولاً، ومع ذلك أصرّ على دعوتها، آملاً أن يجد طريقة إذا حضرت لإغوائها مجدّداً، كما فعل قبل عشرين سنة، أيّام كان يعمل في وزارة الثقافة.

وقتها، كانت أولغا في الثلاثين. وهو عمر جعلها تتصوّر أن خلاصها كأنثى لن يكون إلا بالعثور على ذَكَر يمنحها صفة الزوجة.

وكانت لأسباب نفسية لا علاقة لها بالحقيقة، تعتقد بأمرَيْن، لا صلة لهما بالواقع: الأوّل أنها جميلة، والثاني أنها شاعرة قديرة، تحالفت ضدّها الصدف، لتمنعها من أن تكون كذلك.

كان اعتقاداً واهماً احتفظت به حتّى بلغت هذا العمر، وما كانت لتحتفظ به لمدّة أطول، لو لم يحدث أن التقت صدفة بجمال حميدي، الذي لحكمة في السماء أو لمرض في عقله اعتقد اعتقادها نفسه، إلى درجة أن وقع في غرامها، ومنحها خلاصها الذي كانت ترجوه.

في الصورة الكاملة، تلك التي لم يكن بمقدور جمال حميدي رؤيتها، كانت أولغا تشبه أنثى وحيد قرن بيضاء، بمؤخّرة بحجم طاولة بلياردو، وبصدر ضخم متدلّ كعنقود عنب، وكان رأسها كبيراً، بجبهة عريضة، وبعينَيْن صغيرتَيْن بلا رموش تقريباً، أمّا حاجباها، فكانا متّصلَيْن، يشبهان في الشكل جناحَي طائر. ومع ذلك، كانت أولغا، على الرغم من بشاعتها، أكثر جمالاً من تلك النصوص التي اعتادت أن تجلد بها ظَهْر الشِّعْر. ولكنها لم تكن لتدرك ذلك بسبب أن لوثة غريبة أصابت ذائقة الناس في ذلك الزمن، بحيث صارت كل "محمحة" أو "أحأحة" قصيدة شِعْر رائعة، إذا خرجت من فم أنثى.

ربّما بفضل هذه اللوثة، عاش جمال حميدي حياة كلها سعادة، لولا الحادث الذي جعله مُقعدَاً ونصف عِنِّين، والذي بسببه طلّقتْهُ أولغا، وطلّقت معه اسماً، أطلقه عليها منذ أوّل موعد لهما، لتعود إلى اسمها الحقيقي المكتوب في السّجلّ المدني .. "حورية". وهو اسم لم يكن يحمل

بالنسبة إلى جمال حميدي أيّ معنى، على عكس أولغا الذي أعجبها لسبب لم تُطلعه عليه قطّ.

- سأدعوكِ أولغا.

قال لها في أوّل موعد لهما، راسماً على وجهه ابتسامة، تعمّد فيها ألّا يفتح فمه، لئلّا تظهر لها أسنانه الفاسدة، والتي لم يكن قد أصلحها بعد.

- أولغا؟!

- نعم، أولغا، اسم يليق بكِ، بلا شكّ.

وافقت بلا تردّد. أوهمتْهُ أنها معجبة بهذا الاسم الجديد، فقط لأنها كما رآها تشبه النساء الرّوسيّات في البياض وقوّة الجسم. وافقتْهُ من دون أن تذكر شيئاً بخصوص مرضها بالبرص الذي جعلها على هذا اللون غير الطبيعي.

ومثلما لم تُطلعه على مرضها، لم تجد حاجة لإخباره أن أولغا اسم سبق أن خاطبها به كاتب كبير، كان أوّل مَن اكتشف موهبتها غير الموجودة أصلاً، وأوّل من أدخلها عالم النساء وهي في العشرين من العمر. فقد كان كاتباً يفهم في الكتابة والنساء على حدّ سواء، تماماً ككل كتّاب ذلك الزمن الذي أصبحت فيه الموهبة مجرّد قرار يتّخذه المرء ليصبح موهوباً.

كان جمال حميدي يأمل أن تُلبّي أولغا دعوته لحضور حفلة عيد ميلاده التي لم يحن وقتها، ومع ذلك كان يعلم في قرار نفسه استحالة قدومها، لهذا لم يهتمّ بحلق ذقنه، ولم يُتعِب نفسه في ارتداء أيّ شيء يليق بالمناسبة. اكتفى بمساعدة موح بوخنونة في تحضير حفلة عيد ميلاد لم يحضرها في النهاية سواهما، بعد أن اعتذر إبراهيم بافولولو "بسبب التزام عائلي طارئ، اضطرّه إلى السفر".

كانت تلك طريقة إبراهيم بافولولو للتّنصّل من أيّ دعوة لا يرغب فيها، فكما كان لجمال حميدي جملته الذّكيّة التي يقولها في كل اجتماع يضطرّ لعقده مع بوّابيه: "انتابني يومها شعور غامض بحدوث الأمر"، كان لإبراهيم بافولولو أيضاً جملته التي لا تقلّ ذكاء أو أناقة، يقولها كلّما رغب في التّنصّل من دعوات أصدقاء، لم يعدّهم يوماً أنهم كذلك.

في الحقيقة لم يكن له أصدقاء، فقد كان مكتفياً دائماً بذاته، وأحياناً بعائلته المشكّلة من شخص واحد لا غير، ابنته حورية، التي بسببها اضطرّ إلى التّعرّف على كائن بغيض كجمال حميدي، وإلى تقبُّل فكرة مصاهرته، والادّعاء الكاذب أنه صديقه. ومع أن علاقته بصهره انتهت بمجرّد خروج حورية من حياة جمال، إلا أنه أبقى على بعض الودّ مع صهره القديم، ليس حبّاً فيه ولا شفقة، بل لأن إبراهيم بافولولو كان يعرف نفسه، وأكثر ما عرفه عنها أنه رجل لم يُخلَق ليواجه أيّ شخص.

لا يعني ذلك أنه كان جباناً أو شيئاً من هذا القبيل. كل ما في الأمر، أنه لأسباب عِرْقِيّة لا يد له فيها، كان ينتمي إلى زمرة اللامَرئيّيْن، تلك التي اختارت التواجد من غير أن تكون. زمرة الذين لا يلاحظهم أحد، وهي طريقة ذكية، اختارها للوجود بلا خطر. هكذا ضمن أقصى ما يحقّقه الأمان من غير تكاليف تُذكَر، وإن كانت تافهة كهدية عيد ميلاد أو مقابل الوقود الذي كان سيهدره فقط لو قبل دعوة جمال حميدي لحضور حفلة عيد ميلاده.

وقتما وصلت دعوة جمال حميدي، كان إبراهيم بافولولو يستعدّ للخروج إلى المسجد. فقد كان رجلاً يُقدِّر الله ويحبّه للأسباب الوجيهة، التي تضمن له البقاء صامداً في زمرة اللامَرئيّيْن. وكعادته منذ مجيئه إلى العاصمة، كان ينوي التّوجّه إلى مسجد "الأخوّة" بحَيّ "تونجين"، أين يجدر بأيّ ميزابي يحترم إباضيّته أن يصلّي.

بالطبع، لم يكن ليصرّح بذلك علناً، وأحياناً حين يلحّ عليه بعضهم للصلاة معهم في أقرب مسجد، كان يتحجّج بالعمل في محلّ الخردوات الذي يملك في الدوق ديكار، دون أن يعلن ما لُقِّنه صبيّاً في أن الصلاة في مسجد غير إباضيّ لا تجوز. فقد كان إبراهيم بافولولو رجلاً يفهم في الأصول، ويفهم أكثر أن البقاء لا يحتاج أحياناً إلى القوّة، بقدر ما يحتاج إلى إظهار المزيد من الضعف.

وكان قد حدث قبل هذا بأشهر أن مصعد عمارة بافولولو تعطّل بنحو غير متوقَّع. ولأنه كان يسكن آخر طابق، فقد حاول أن يُقنع جيرانه بضرورة تصليح المصعد من دون جدوى، فقد ساد الاعتقاد وقتها بأن الشعب غير مَعني بأيّ شيء غير التواجد والعيش بسعادة توفّرها حكومة تحبّهم.

كان هناك عدد هائل من الحقوق، لا يقابلها إلا واجب الاعتزاز بالوطن. وكان من حقّ أيّ شخص أن يملك سَكَناً بلا مقابل، وأن يُوظَّف في أيّ شركة، وإن لم يكن كفؤاً، ومن حقّه أيضاً أن يداوي من غير أن يدفع شيئاً حتّى لو امتلك ما يبني به عشرات المشافي.

كان زمناً مدهشاً، سمح للإنسان الجزائري وقتها بالتّشبّث بخرافة "الرجل الأفضل"، ومكّن الحكومة من خَلْق كائن مُدمِن على رخاء، لم يتعب لأجله. كانت الفكرة ابتكار مواطن بلا رأس، تحتلّ بطنه أكبر مساحة من جسده. وهو ما حدث بسرعة، لم يتخيّلها أحد.

ربّما كان إبراهيم بافولولو أحسن نموذج لـ "الرجل - البطن"، مع استثناء أنه كان الشكل البدائي لمواطني الألفية الثانية والأكثر بدائية لمواطني الألفية الثالثة، فقد كان لا يزال يحتفظ ببعض المخّ في جمجمته العريضة، ومع ذلك كان بسبب إدمانه للأكل يشبه كرشاً كبيرة بساقَيْن بالكاد تحملان جثّته.

بسبب المصعد العاطل والطوابق الخمسة التي تفصله عن الشارع، احتاج إبراهيم بافولولو لخمس عشرة دقيقة ليبلغ مدخل عمارته، ثمّ إلى ربع ساعة أخرى لينزل سلالم ترولار. كان مع كل خطوة يخطوها يلهث لهاثاً يُسمَع عن بُعْد مئة متر.

وفجأة ومن دون تفصيل مُملّ، بمجرّد أن بلغ أسفل السلالم حتّى توقّف قلبه ومات.

حدث ذلك في الوقت نفسه الذي أنهى فيه جمال حميدي وضيفه ثاني قنّينة نبيذ، وشرعا يبحثان عن أيّ شيء يصلح للسُّكْر، ليهتديا حين أعياهما البحث إلى بعض الكحول الطّبّيّ مزجاه مع ماء غازي، ثمّ أضافا إليه نصف ملعقة ملح وبعض الخلّ. شرباه بتقزُّز في البداية، ثمّ سرعان ما ألفا الطعم، لينتهيا إلى متعة فريدة من نوعها. كان هذا الخليط يسمّى الزمبريطو، كوكتيل لقّنهما إيّاه الفقر سنوات المراهقة.

بعدها لم يحدث شيء يستحقّ الذِّكْر، باستثناء أنه في لحظة ما، ربمّا قبل منتصف الليل بقليل، تجرّد موح بوخنونة من ثيابه، وخرج إلى الشارع يعدو كالمجنون، تُشيِّعه عينا مضيفه الذابلتان. حدث ذلك ثلاث دقائق واثنَتَي عشر ثانية بالضبط، قبل أن يبدأ جمال حميدي في الشخير، وقبل أربع دقائق فقط من استيقاظ سكّان عمارته كلهم بحثاً عن سدّادات أذن، فلم يكن ما يُصدره جمال حميدي شخيراً بالمعنى المتداول، بقدر ما كان نوعاً جديداً من الأصوات، لا أحد كان بمقدوره منحه وصفاً. وحدها أولغا كانت قادرة على احتماله، إذ لم يحدث يوماً أن تعكَّر نومها بسبب شخيره أو لأيّ سبب آخر. كان يكفيها أن تضع رأسها على الوسادة، وتُغمض عينَيْها لتنام.

في الوقت نفسه وعلى بُعْد ستّين كيلومتراً وثمانمائة متر وخمسة وعشرين سنتيمتراً بالضبط، ركن أحدهم شاحنة "ماهيندرا" بجوار صناديق قمامة، بدا أنها لم تُفرَّغ منذ يومَيْن. تماماً في المنعطف الأوّل من شارع الدوق ديكار، صعوداً من حَيّ ترولار في اتّجاه قصر الحكومة.

نزل رجلان من الشاحنة، وبقي السائق في مكانه دون حراك. كل ما فعل أنه أطفأ المحرّك، ولوّح للرجلَيْن بيده اليسرى، كإشارة على أنه لن يغادر حتّى يعودا.

استمرّ السائق في تشييعهما بعينَيْه حتّى اختفيا عن ناظرَيْه وهما يدخلان العمارة رَقْم الواحد والعشرين. كان يسيران في صمت، وفي تناسق غريب، وكأنهما جنديّان متوجّهان إلى الجبهة. ومع أنهما كانا يشبهان بعضهما في كل شيء، إلا إن أحدهما بدا أكثر دراية بوجهتهما، بحيث بمجرّد أن بلغا الطابق الخامس حتّى أمر شبيهه بالتّوقّف قائلاً:

- انتظرْ هنا، ستساعدني في حمل بعض الأغراض.

وقام يطرق باب أوّل شقّة على يسار السّلّم.

استقبلتْهُ أولغا بعينَيْن محمرَّتَيْن وبوجه شاحب. لم يسلّم عليها، ولم يبدُ أنها رغبت في أن يفعل ذلك. كل ما حدث أنه توجّه مباشرة إلى الرواق، وتوقّف أمام محفظة جِلْدية وثلاث حقائب سفر كبيرة، تكاد تسدّ مدخل صالة المعيشة. سأل متعمّداً ألا ينظر صوبها:

- أهذا كل شيء؟

حرّكت أولغا رأسها لتقول نعم، ثمّ أضافت:

- كل ما طلبتَ منّي جمعه. لم أترك شيئاً له علاقة بتجارة أبي إلا ووضعتُهُ في محفظته، أمّا ملابسه، فهي في الحقائب.

- طيّب. أتركك الآن، ما زال أمامنا طريق طويل لنصل غرداية، وقبلها يجب أن نُخرِج جثّة إبراهيم من المستشفى. غداً، نصلّي عليه ظهراً.

- وأنا؟

قاطعتْهُ والرجل مصرّ على عدم النظر في اتّجاهها.

- أنتِ؟ ! لا علاقة لكِ بالأمر. إبراهيم أخي، وليس أباكِ، هو فقط الرجل الذي ربّاكِ وقد مات الآن. بالطبع سنُنفِّذ وصيته، ونترك لكِ هذه الشّقّة. سيصلكِ أيضاً مصروفكِ الشّهريّ بانتظام. غير هذا لا شيء، والآن دعيني أذهب.

ونادى على شبيهه، وانصرفا حاملَيْن حقائب إبراهيم بافولولو، بينما أولغا تبكي في صمت.

كان الشارع وقتها مضاء على غير عادة الشوارع الدّاخليّة للعاصمة. حتّى إنه كان هناك سبعة أعمدة مصابيح موزّعة على طول خمسين متراً من الشارع الذي، لسبب ظلّ غامضاً، كان لا يكفّ المقاولون عن تجديده، حتّى شاع بين الناس أن رجلاً من الحكومة يملك شقّة في الجوار. لكن الحقيقة كانت مختلفة تماماً، وما كان لأحد أن يعرفها بالشكل الذي عرفها إبراهيم. فقبل خمسين عاماً، دخل بافولولو على زوجته، يحمل رضيعة بين يَدَيْه، قال إنه وجدها أسفل سلالم ترولار، من دون أن يذكر لها كيف وجدها، ولا السبب الذي جعله على غير عادته يقضي ذلك اليوم بطوله خارج البيت، مغلِقاً محلّ الخردوات.

لم يُخبر إبراهيم بافولولو زوجته بأيّ شيء، ليس لأنه لم يثقْ فيها، بل لأنه كان موقناً بأنها لن تطرح عليه أيّ سؤال، فقد كانت زوجة صالحة، والأهمّ أنها كانت عاقراً، وقد أهدتْها السماء هذه الرضيعة التي لم يُطلعها على حقيقتها أيضاً، لأنه لو فعل، لكان عليه أن يسرد عليها قصّة بدأت من غير أيّ رغبة في الانتهاء. قصّة بدأت بخدعة لم يتصوّرها أحد.

أولغا

كانت خدعة رهيبة حقّقت الانفجار العظيم، ومنه جاء رجال على سديم الكون وتناسخوا، لتوجد هكذا آلهة من العَدَم، لا أب لها .. لا أوّل ولا آخر .. كل ما حدث، أنه بعد سنوات قليلة من هذا الانفجار، رسخ يقين واحد لدى هؤلاء القادمين كلهم في أن عصراً كثيراً ما تحدّثت عنه الكُتُب لن يتقبّل فكرة الآلهة بتسليم مطلَق. لم يعد ثمّة - في الخيال أو الواقع - مكان يمكنه احتضان تلك الآلهة مثلما كان يفعل الأولمب المقدّس.

هكذا نزلت تلك الكائنات المقدّسة إلى الأرض، واختلطت بالبشر، ثمّ تناسخت من جديد، لتُولَد أنصاف الآلهة، وبسبب الحنين الأوّل إلى ما كانت عليه، تخيّرت مواقعها في "المدينة - الدولة". القدرة وحدها ما جعلها تختار أعالي المدينة .. حينها اكتشفت من جديد ذلك الشعور العارم .. الرائع .. الغريب والمثير أيضاً وهي تطلّ كل ليلة من فوق على عالم الأوغاد. ومن تلك العلياء حدث أن نظر أحدهم من شرفته. كان واحداً من أنصاف الآلهة المحظوظين: ربمّا كان إله الحديد أو السّكّر أو الزيت أو .... المهمّ كان إلهاً يطلّ كل مساء من تلك الشرفة السّماويّة، كما يجدر بكل إله أن يفعل استمتاعاً وتأكيداً لمكانته الفوقية المقدّسة.

كانت تلك أكبر خدعة قام بها أحدهم على الإطلاق. بالون يُنفخ إلى أقصاه، يرتفع في الهواء، يطير، يسبح متطلّعاً إلى السماء، وفجأة بمجرّد أن يتملّكه اليقين أنه "الأعلى"، تُفجّره إبرة حقيرة، لتُحيله إلى العَدَم.

نظر ذلك الإله من شرفته، وكله يقين بأنه يرى الجميع من غير أن يراه أحد.

في الحقيقة كان يقيناً واهماً. لم يكن يرى أحداً أو شيئاً. كل ما كان يخترق بصره هو خيالات بشر، لا يملكون ملامح. ظلال تمشي نهاراً، لتتحلّل مع الليل. تظهر من أجل أن تختفي. تُولَد فقط لتموت في دولة كالمدينة، في مدينة أصبحت دولة، لفرط ما أنبتت من آلهة تواطأت، لحكمة ما، في إيهام الناس بأنها عاصمة لدولة ما ..

ستملك هذه الدولة اسم عاصمتها، وتدوّن في قاموس المفردات البذيئة على أن اسمها الجزائر، وسيُبعث فيها أنبياء، يدينون بعقيدة تسمح لاحقاً للإنسان الجزائري بالإيمان بعالم خالٍ من الأسياد. عالم يتساوى فيه الناس بنحو مفرط في السخف، وهو عالم بسببه أُحيل هذا الإنسان الطيّب، الساذج، الأحمق في معظم الأحيان، إلى حياة يعمّها السلوك السّوقيّ، بسبب تمسُّكه بخرافات "الرجل الأفضل".

بعد عقود من ذلك، قُبر الرجل الأفضل، ليُبعثَ كائناً "زومبيّاً" يعتقد الحياة وهو ميت .. وكانت تلك ثاني أكبر خدعة يقوم بها أحدهم على الإطلاق.

إلا أن الأشياء التي تبدو بسيطة يحكمها ما سمّاه الحكماء منطقاً، لم تكن بسيطة ولا منطقية، إذ كيف للمنطق أن يجمع كائنَيْن مختلفَيْن كوالدَيْها؟ وكيف سمحت الحياة بلقاء غير محتمل تماماً. ففي "المدينة - الدولة"، حيث كانا يقيمان، قدّرت حركة الحظوظ أن تسكن أُمّها الجنّة، ويقيم والدها في الجحيم. قَدَرٌ مثل هذا جعل الاحتمالات واضحة جدّاً: كانت أُمّها جميلة على نحو جعل "أفروديت" تكتفي بالبقاء جارية لديها. أمّا أبوها، فقد امتلك من القبح ما رشّحه ليكون خادماً وضيعاً أو جابي عذاب لدى "هيدز".

توضيحاً لما جرى، لم تكن الجنّة إلا حَيّاً راقياً يقذف بالتافهين والأوغاد من أمثال "الوالد - الوحش"، ويكون الجحيم أيّ مكان آخر من "المدينة الدولة"، غير هذا الحَيّ الراقي بفضل آلهة لم تكن في البداية تزعم بأنها تملك أن تسيِّر الرياح أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنها، مع ذلك، كانت تتحكّم في مصائرهم: حياتهم وأرزاقهم. وأحياناً حين تشعر بالحنين إلى أسلافها من الآلهة القديمة، تستحضر بعضاً من قدرتها، فتمنح الموت والحياة. ومع هذا فقد كانت أكثر رأفة من أسلافها، حين تصنَّعت الغباء، لتوحي للأوغاد التافهين أن بمقدورهم العيش كما يشاؤون.

كان لأحد هذه الآلهة ابنة أراد لها اسم "أميرة"، كانت تحاول تعلُّم طقوسه. تفعل كل ما يفعل. تطلّ معه كل مساء من شرفته السّماويّة، حتّى لا تنسى كيف يبدو عالم الأوغاد متناهياً في الصِّغَر والحقارة.

كانت أميرة في عامها السادس عشر. ولسبب يتعلّق بوالدها، عاشت حياة من الوحدة الإجبارية، قوّضت عالمها إلى تلك البناية البيضاء الموجودة الآن بأعالي "حيدرة"، أين تنتشر كائنات طيِّعة تومئ أكثر ممّا تتكلّم .. هكذا انقسم الناس في رأسها إلى نوعَيْن من الكائنات: أنعم الله على الأولى بنعمة الفَهْم والنطق والكلام، فتجدها تتكلّم وتأمر وتوجّه، وحين تقتضي الضرورة تصرخ وتهدّد وتسبّ. وهي كائنات شبيهة بها، لم توجد إلا لتتبوّل على الأوغاد الذين سيشكرونها لاحقاً على نعمة المطر. وكائنات أخرى أميل للحمق والبُكم والسكوت، مهمّتها تلقِّي الكلمات، والإذعان للأوامر فحسب.

ومن هنا بدأت قصّة أولغا من دون أن يدرك أحد أنها بدأت. حين تحرّكت في مكان ما من هذا العالم الشاسع غريزة "رجل ما"، وقرّر. بعد تفكير أو من دونه. أن يفعل شيئاً بهذا الخصوص.

هناك احتمالات كثيرة بخصوص ما فعل الرجل، ولفرط كثرتها، فكل محاولة لحَصْرها ستكون هدراً لوقت لا يستحقّه الرجل الذي اختفى بمجرّد أن فعل شيئاً بخصوص غريزته. فما إن وجد خلاصه، عثر شخص آخر على مستقبله اللعين.

اسم هذا الشخص غير مهمّ الآن. كل ما يهمّ أن فتاة سمحت بسبب الحبّ أو بسبب تهيُّج هرموناتها، غير المستقرّة حينئذ، أن تُخلِّص "الرجل ما" من عبئه، وتحمله عنه إلى حين. وبالفعل، بعد تسعة أشهر بالضبط تخلّصت هي الأخرى من هذا العبء، حين وضع رجال ببدلات سوداء وربطات عنق عبأها بأسفل سلالم ترولار ملفوفاً بقماش أزرق.

هكذا نجا العبء الملفوف في القماش الأزرق من أمرَيْن: الأوّل، أنه عكس والده حمل اسماً ما. أمّا الأمر الثاني الذي نجا منه، فهو تلك الحياة التي كان ليخوضها لو عاش مع والدَيْن كوالدَيْه.

مهما يكن، فقد كان الملفوف في قطعة القماش الزرقاء أنثى بيضاء بعينَيْن زرقاوَيْن، تقدّر أن تسمّى بعد فترة "حورية". على الأقلّ هذا ما كُتب في السّجلّ المدني لبلدية الجزائر الوسطى: "*في الخامس جويلية/ يوليو عام .... ميلادي وُلدت: حورية/ اسم الأب: مجهول/ اسم الأُمّ: مجهول/ الجنس أنثى. ملاحظة: تبنّاها السّيّد إبراهيم بافولولو، وعليه تأخذ لقبه*".

كان هذا ما كتبه رجل طيّب في السّجلّ المدني، ولكن المشيئة كتبت شيئاً آخر، بقدر ما يبدو صادماً وظالماً وساديّاً، بقدر ما هو نتيجة حتمية لوقائع بدأت قبل ميلاد حورية. وقبل أن تتحرّك غريزة "الرجل ما"، وقتما اعتقد أنه كان موفور الحظّ حين سيّرته المشيئة من صحراء ميزاب أين تبرأ منه والده إلى العاصمة .. مدينة تنبت فيها عمارات بيضاء زُرعت على

جبل. كان لقاؤه بالمدينة يشبه في بدايته لقاء إسكلبيوس بهرمس، ولكنه على عكسه لم ينته إلى بلوغه سدرة الحكمة، مكتفياً بواقع مبتذل وبائس. وحدها الصدفة جعلتهُ يلتقي بـ "دا امنحند" صاحب حانة عمر الخيّام بـ "ميسونيي"، والذي لأسباب هرمونية - قد لا تبدو أخلاقية لدى البعض - حظي بمنزلة الخليل لديه.

كان الـ "دا امنحند" في السّتّين من العمر، ومع أنه عمر ينشغل فيه الجزائري المحترم في العادة بلقاء ربّه، بحيث يبدأ فيه طقوس التّطهّر، إلا أن "الدا امحند" بسبب هرموناته استمرّ في التّمسّك بالحياة التي لم تكن تعني في بعضها بالنسبة إليه، إلا الحقّ في بلوغ السماء السابعة بأيّ طريقة.

هكذا وجد "الرجل ما" سقفاً يؤويه وفرشاً يدفئه بسقيفة حانة عمر الخيّام. وهكذا وجد لنفسه أباً جديداً يشبه أباه السابق في الثراء والسّنّ. ولكنهما يختلفان في أن السابق كان يطالبه بمصروف البيت مع نهاية كل أسبوع، أمّا الجديد، فلم يكن يسأله إلا بعض العبث، ينتهي فيه ليلة كل يوم أحد إلى حصان يمتطيه "الرجل ما".

في البداية كان الأمر ممتعاً. مجرّد لعبة كما كان يقول "الرجل ما" في نفسه، ولكنها ككل اللعب لفرط التكرار غالباً، تجرّدت، مع مرور الوقت، من المتعة، وتقمّصت ثوب الواجب، لتتحوّل لاحقاً إلى التزام أخرق شبيه بالتزام الزوجَيْن تجاه بعضهما.

هنا، لا يعرف أحد على وجه اليقين كيف تمّ الطلاق، ولا كيف تمكّن "الرجل ما" من التّخلّص من الـ "دا امنحند". كل ما يُعرف أنه بعد خمس سنوات بالضبط وجد لنفسه عملاً بقصر أحد الآلهة الجدد. وفي باحة

هذا القصر تحرّكت غريزته، حين رفع رأسه بالصدفة، ورأى ابنة الإله تطلّ من شرفتها السّماويّة. بعد خمسة أشهر تصل رسالة إلى والد "الرجل ما" تُعلِمه بالعثور على جثّة ابنه في الصابلات. شهران بعد ذلك تداهم الشرطة حانة الخيّام وتُغلقها، ولاحقاً، غير بعيد عن "سلالم ترولار" يعثر رجل على رضيعة ملفوفة في قماش أزرق.

بعدها، لم تحتج المشيئة إلا لمزحة بذيئة ولعقدَيْن من الزمن، لتتمكّن من شطب ما كتب الرجل الطّيّب في السّجلّ المدني، ويصير اسم حورية في ألسن الناس "أولغا".

ثلاث سنوات بعد ميلادها، تأكّد بما ليس فيه شكّ بأن حورية مصابة بالبرص. لم يكن الأمر خطيراً، مجرّد جلد أبيض شفّاف وعينَيْن زرقاوَيْن، تمقتان الشمس. تكرهان الضوء. هكذا بدأت حورية حياتها في عالم من الظلال والظلمة، يترجم فيه الأمان بالأبواب المغلقة والستائر الداكنة، والبقاء أبعد ما يمكن عن الضوء .. عالم يمثّل فيه الاحتجاز أعظم ما قد يبلغه المرء من الحرّيّة ... كانت تلك، أولى مزحات المشيئة.

كانت مزحة سخيفة، بذيئة، سامطة .. فحتّى وإن طُمست الأدلّة، واختفى الشهود، وتمكّن المذنبون من التّملّص من الحقيقة .. حتّى وإن سارت الأحداث على حبل اللامتوقّع، فقد كان الدم الذي يسري في عروق حورية نبيلاً، دماً إلهياً بلا شكّ، يجعل منها إلهة أو نصف إلهة بنحو ما.

ماذا كان ليحدث، لو أن المشيئة توقّفت عن العبث، أو تناست ساديّتها لبعض الوقت، تاركة الأمور في قبضة المتوقّع، تماماً كما فعلت في السنوات الثلاث السابقة لمرضها؟.. لكنها المشيئة في

النهاية، كل شيء يغفر لها، كل ظلم. حتّى تلك القرارات التي لا يمكن فَهْمها. يكفي فقط أن تبتكر من أجلها صاحب عمامة أو لحية، ليُذكِّر الناس بضرورة التسليم المطلق والإيمان بأن ظلم المشيئة مجرّد عدل، لا يفهمه العقل القاصر.

الفصل الثاني

انصرف الرجلان اللذان يشبه الواحد منها الآخر. نزلا الطوابق الخمسة نفسها. وما إن وضعا الحقائب خلف شاحنة الماهيندرا، حتّى حرّكها السائق، لتنحدر يميناً مع الطريق المؤدّي إلى شارع الدكتور سعدان ..

كانت تسير ببطء بسبب سيّارات مركونة على جانبَي الشارع ورصيفَيْه، والتي بسببها اضطرّت أولغا لقضاء وقت أطول من المتوقّع في تشييع الشاحنة وهي واقفة على شرفتها، تبكي في صمت، أضاف لسكون الليل هيبة لا يدركها أحد غير كائنات ليلية، اعتادت على الظهور في هذا الوقت المتأخّر من الليل، في اللحظة نفسها التي يبعث فيها رجلان من الظلام: واحد يطلّ من شرفته في العمارة المقابلة لعمارة بافولولو، وآخر أطلقت عليه أولغا اسم "رجل القمامة"، اعتادت على رؤيته كل ليلة في مثل هذا الوقت من الليل. نحيف، أسمر، يرتدي قبّعة سوداء تخفي جبينه وشيئاً من وجهه، ويضع دائماً على ظهره حقيبة.

كان مُسنّاً في السبعين من العمر أو ربمّا أكثر. فلا أحد فكّر يوماً في تأمُّل وجهه، ولا في التّحقّق فيما يُخرجه من الزبالة، ويضعه في حقيبته.

لا أحد أيضاً شعر تجاهه بأيّ شيء، لا استغراب ولا شفقة. ربمّا شعر الناس بذلك في فترة ما، ولكنهم لم يعودوا يشعرون بذلك. ليس لأنهم غير مبالين به، بل لإدراكهم اللاشعوري بأنها مسألة وقت ويلتحقون به.

كانوا يمرّون به متحاشين النظر إلى وجهه، وكأنهم بطريقة ما، أدركوا أنهم حين يفعلون ذلك، فإنهم ينظرون إلى ما سيكون واقعهم بعد حين. وحده الرجل المطلّ من شرفته حاول مرّة التحديق في وجهه، لكنه كان في كل مرّة يفعل ذلك تبتلع غشاوة بصره، فيعود إليه بلا صورة وبلا ملامح، ليظلّ بالنسبة إليه مجرّد رجل مجهول، يقتات كالمئات، كالآلاف من مزابل المدينة الدولة.

وكان يحدث أحياناً أن يلوّح له الرجل بيده مبتسماً، متسوّلاً سيجارة، فيُلقي إليه رجل الشرفة بواحدة. كل ما كان يخطر على ذهنه وهو يفعل ذلك، أنها مسألة وقت ليحلّ محلّه، ولربّما سيفعل مثله بالضبط، حيث سيرفع رأسه ويرى رجلاً مطلاً من شرفته يدخّن سيجارة. تخيّل نفسه يلوّح مبتسماً، متمنّياً أن يلاحظه، أن يردّ عليه ولو ببصقة أو بكلمة بذيئة أو بأيّ شيء يُشعره بوجوده، وبأنه لم ينته إلى مجرّد خيال لا يبالي به أحد. المهمّ أن يراه فقط حتّى ولو لم يُلقِ إليه بسيجارة.

في تلك الليلة لم يلاحظه، بالرغم من أن رجل القمامة والذي حمل اسم "عصام كاشكاصي" لوّح إليه أكثر من مرّة، فقد كان رجل الشرفة مستغرقاً بالتفكير بأمر جعله لا يعير اهتماماً بما يحدث في الأسفل، حتّى إنه لم يلاحظ وجود أولغا على الشرفة المقابلة رغم شهيقها الذي قطع سكون الليل. ومع ذلك، كان كاشكاصي محظوظاً حين ألقى رجل الشرفة سيجار مشتعلة بالكاد أخذ منها نَفَسَيْن قبل أن يعود إلى شقّته، وكان حظّه أعظم حين سقط على مقربة منه، غير بعيد عن صناديق القمامة أين كان يقف حينها.

ومهما بدا الأمر غريباً، فقد كان "عصام كاشكاصي" كلّما بلغ تقاطع شارعَي الدوق ديكار و٢٤ فبراير نزولاً من تيليملي، إلّا وتصادف وصوله مع ثلاثة أمور لا غير: رجل يدخّن على شرفته في الطابق الخامس، وامرأة

بدينة تقف على شرفة شقّتها في العمارة المقابلة لا تفعل شيئاً إلا الوقوف هناك، ومواء قطّة سوداء، لم يرها أحد قطّ.

كان اجتماع هؤلاء يحدث في كل ليلة منذ قرّر كاشكاصي قبل شهر أن يمسح أجزاء جديدة من العاصمة، لم يتجرّأ على مسحها منذ جعلتْهُ المشيئة وبعض خياراته الحياتية الموصوفة في وقتها بالشجاعة يمتهن التّسوّل. ولكنه على عكس بقيّة زملائه لم يكن من النوع الذي يمدّ يده، ولا ممّنْ يحفظ جملاً جميلة عن الرحمة وأدعية مسجوعة يقولها للناس استعطافاً لهم. ولم يحدث يوماً أن أجّر كما تفعل "قُرّانات السّمّار" رضعاً أو صبية يستعطف بهم قلوب المؤمنين بوجود شيء أو كائن في السماء يسعد بصدقاتهم، ويعوّضهم عنها جنّة أو فردوساً.

لم يكن من هذا النوع من المتسوّلين، لأنه ببساطة لم يكن شحّاذاً بالمعنى الشائع: ثياب رثّة ويد ممدودة وأدعية بالجملة وعينان ذابلتان، وأيضاً لأنه ورث لقباً غريباً ورتبة اجتماعية جعلاه في منعة من الذّلّة التي تُشترَط في سيرة أيّ متسوّل متمكّن من مهنته.

انتمى عصام كاشكاصي إلى رتبة اجتماعية اندثرت بسرعة مباشرة بعد الانفجار العظيم، وإثر ظهور أوّل أشكال مواطني الدولة المدينة المسمّى "الرجل الأفضل". وكانت هذه الرتبة تمنح لمواطنين مخضرمين، عاشوا عصر ما قبل الانفجار في شكل بدائي للمواطنة، أطلق عليه اسم "الإنديجان"، ثمّ استمرّوا في الحياة من دون أن يتّخذوا أيّ موقف واقعيّ، يسمح لهم بالتّطوّر إلى "حركى" أو "مجاهدين"، وهما نوعان بشريان اكتسحا الحياة في ذلك العصر، من غير وجود معايير تسمح بالتمييز بين النوعَيْن، فكان الواحد يظهر بجينات "المجاهد" حيناً، ثمّ ولمبرّرات تفقد المنطق منطقه يصبح "حركيّاً"، ثمّ مجاهداً، وهكذا دواليك.

إلا أن العلم غير المكتوب حينئذ، وجد أكثر من طريقة لإثبات أن "الإنديجان" نوع بشري غير قابل للتّطوّر، وما الأسماء التي أُطلقت عليه لاحقاً: "الغاشي"، "الرّعيّة"، "الشعب"، "الشعب العظيم"، "سليل الثورة العظمى"...، إلا تسميات لبقة لنوع واحد يتشارك في جينات الطّيّبة والسذاجة والقدرة على تصديق ما لا يصدّق، وهي جينات جُمعت في خانة "ولاد الفاميليا"، ما يُترجَم في اللغة إلى "أولاد العائلة"، وهم أناس بدائيون بدليل أن لديهم آباء وأُمّهات يُنسبون إليهم، على عكس الجينات الغالبة في الأنواع المُسيطرة، والتي تجعل الواحد فيها يعرف أُمّه من دون أيّ يقين في مَنْ يكون أباه.

كان عصام كاشكاصي "وليد فاميليا"، لهذا ربّما لم يكن بمقدوره أن يمدّ يده طلباً للرحمة، مكتفياً في كل ليلة حين تُغلق المدينة الدولة أبوابها بمَدِّ يَدَيْه داخل صناديق القمامة بحثاً عن أيّ شيء يصلح للأكل أو اللبس. وكان أحياناً يلثمه الحظّ، فيجد فيها ما يصلح للبيع في أسواق الخردة المسمّاة في لغة الإنديجان "دلالة"، كتلك الموجودة في "الروتشار" و"الحراش" و"الديكانز" وبساحة الساعات الثلاث بباب الوادي.

ولأن الحظّ كلمة لم تُخلَق لرجال مثله، لم يبلغ عصام كاشكاصي أيّ درجة من الغباء البشري الذي يفترض أن يسمح للحلم بالتّسرّب إلى عقله أو إلى قلبه أو إلى كلَيْهما معاً، ولكنه بسبب انتمائه القصري إلى نوع "ولاد الفاميليا" كان يؤمن بوجود كائن أسمى يجلس في عرشه بسماء غير السماء الطّبيعيّة يرى الجميع من دون أن يراه أحد. كان هذا الكائن يعرف كل ما يجري قبل أن يجري، وكان من العدل بأن قسّم الأرزاق بين الناس، بحيث جعل رزق عصام كاشكاصي فيما قد يخلّفه الناس من زبل وقمامة.

وفي الوقت الذي انحنى فيه لالتقاط سيجارة رجل الطابق الخامس،

كانت شاحنة الماهيندرا التي تحمل حقائب إبراهيم بافولولو تنحدر يمين صناديق القمامة مع شارع ٢٤ فبراير في اتّجاه الدكتور سعدان.

ناور السائق بحذر على نحو جعله يتفادى السّيّارات المركونة على جانبَي الشارع، ولكنه تفاجأ بسيّارة مركونة أوّل المنحدر، اضطرّ بسببها إلى تخفيف سرعته، بحيث انقلبت الحقائب خلف الشاحنة، ليسقط من إحداها شيء أحدث رنّة بمجرّد ارتطامه بالأرض. وإذ ذاك، سارع عصام كاشكاصي لالتقاطه بلهفة طفل في الخامسة من العمر. وبمجرّد أن فعل، تشكّل خطّ على وجهه يشبه البسمة، وظهرت تحت وجنَتَيْه غمّازتان صغيرتان، حفرتا ذقنه غير الحليق.

كانت قطعة نقدية مختلفة عن نقود المدينة الدولة التي نادراً ما صادفها حين يحدث أن يلثمه الحظّ، ويجد في صناديق القمامة شيئاً يصلح للبيع.

ابتسم مجدّداً وعيناه تعكسان لونها الأصفر على حدقَتَيْه، فقد خطر على باله بأنها قد تكون من ذهب خالص. كان لهذا الخاطر قدرة غريبة في حمله على ظهر الحلم للحظة أو لحظتَيْن من وجوده الذي وإن استمرّ كل هذا العمر من الشقاء، فلم يعرف الحلم قطّ إلا في شكله البدائي المسمّى "أمل"، والذي لم يكن في الحقيقة إلا رجاء بسيطاً بأن يكون الغد مختلفاً عن اليوم، مجرّد رجاء يطبق عليه جفنَيْه كلّما تمدّد لينام لبعض الساعات على كراتين يفترشها في أيّ مكان من المدينة الدولة، يشعر فيه باحتمال أكبر بأمان، لم يعد يعني له إلا البقاء ليوم آخر على قيد الحياة.

قبل سنوات، كان في المدينة الدولة أناس يشبهونه في الإيمان بوجود كائن أسمى على عرشه، ينظر إليهم من مكانه في السماء، ولكنهم ومع

مرور الوقت وتطوّرهم الطبيعي من إنديجان إلى غاشي، ثمّ رعية، ولاحقاً إلى شعب عظيم مشكَّل من "رجال أفضل" تطوّروا إلى مواطنين بلا رأس، تحتلّ كروشهم أكبر مساحة من أجسادهم، تناقص عدد المؤمنين بوجود هذا الكائن الأسمى وهم يرون قدرة الآلهة الجديدة على تهميشه دون أن يتمكّن من فعل شيء. ثمّ وفي اللحظة التي تمكّنت فيها هذه الآلهة من قهر الموت بفضل إلهها الزّومبيّ المستمرّ في الحياة رغم صدور قرار موته من السماء، توقّف الجميع على الإيمان بالكائن الأسمى الذي لآلاف من السنين، لم يقدر أحد على ردّ قضائه. ومع ذلك، كان عصام كاشكاصي كلّما أغمض عينَيْه لينام يرسل رجاءه هامساً في نفسه، في شكل دعاء إلى الكائن الأسمى الجالس على عرشه يترجّاه ألا يستيقظ بعد اليوم أبداً أو أن يستيقظ في غد أفضل من يومه.

كان رجاء فحسب، إبداء لرغبة لن تتحقّق ودعاء تافه غير مستجاب.

على الأقلّ، كان هكذا لعقود من الزمن، استيقظ فيها عصام كاشكاصي ليدرك أن لا شيء تغيّر بالنسبة إليه. كان استيقاظه كل يوم دليلاً واضحاً على أنه لم يمت بعد، وأن استمراره في مَدّ يده داخل صناديق القمامة بحثاً عن أيّ شيء يقتات منه بيان جليّ بأن يومه مثل أمسه مثل غده، بؤس مستحل ببؤسه.

وكان الأمر ليتسمرّ على هذا النحو لو لم يحدث أن عثر على تلك القطعة النّقديّة التي اعتقد بسبب لونها أو بسبب الكمّ الهائل من الرجاء المتراكم داخله أنها من ذهب. والحقّ أنها كانت كذلك، لكن معدنها لم يكن ما منحها القيمة التي لم يكتشفها عصام كاشكاصي أبداً رغم سلسة أحداث غريبة بدأت بإلقاء رجل الطابق الخامس سيجارة مشتعلة، انتهت بالقرب من عصام كاشكاصي، بحيث جفل بمجرّد أن أطلقت أولغا صرخة

شجن مفاجئة: "يا بابا.. يا بابا"، وهي تشيّع شاحنة الماهيندرا إلى أقصى ما بلغه بصرها. وإذ ذاك، أفلت عصام كاشكاصي القطعة النّقديّة من يده، فتدحرجت على أدراج سلالم ترولار، لتستقرّ بالصدفة في المكان نفسه الذي سقط فيه إبراهيم بافولولو ميتاً، مساء ذلك اليوم نفسه، تماماً عند عتبة محلّ موادّ غذائية، كان إلى وقت قريب جدّاً مرحاضاً عمومياً، تماماً كما كان دكّان المأكولات السريعة على بُعْد أمتار قليلة فقط بمحاذاة النفق الجامعي المتخصّص في "المحاجب"، وهي أكلة جزائرية كثيراً ما وُصفت على أنها ترجمة غير وفيّة لما قد يُعَدّ في الجانب الآخر من البحر "بيتزا": عجينة مَحشوّة بالطماطم والبصل. على الأقلّ بهذا كانت تُحشَى إلى أن اكتفى الناس بالبصل وحده لغلاء الطماطم التي ارتقت مع جلّ الخضروات إلى مرتبة الفواكه، وارتقت هذه إلى خانة اللحوم، وقفز اللحم بأنواعه كلها إلى مرتبة الذهب، حتّى إن الناس في المدينة الدولة لم يجدوا ما يفعلونه بأمثلة شعبية، توارثوها جيلاً بعد جيل، مواضيعها الرزق الحلال والمراتب الاجتماعية بكل ما يقتضي ذلك من حكمة تُوظّف لوصف أوضاع بعينها، فكانوا في زمن يفهم في المنطق يصفون مَنْ لا دور له في الحياة، فيقولون "إنه كالخضرة فوق الطعام"، ولكنهم في زمن صارت فيه الطماطم تفّاحاً والكوسة في منزلة الكيوي، أصبحوا يتجاهلون هذا المثل عمداً، وإذا طفحت به ذاكرتهم عن غير قصد، تحامقوا وقالو إنه عن أيّ رجل في مكانة رفيعة.

كانت المراحيض العمومية، كالمكتبات وقاعات السينما والمسارح تماماً، أماكن آيلة للانقراض في المدينة الدولة التي مع اختراع المواطن بلا رأس - ذلك الذي تحتلّ كرشه أكبر مساحة من جسده - أصبحت تشبه بنحو ما مركزاً تجاريّاً بمساحة تتجاوز المليونيَ كيلومتر مربّع، لا تجارة فيه إلا المخصّصة للبطن، فكان يوجد مقهى بين كل مطعمَيْن، وبين كل مقهى

وآخر يوجد مطعم. ولأنه كان العصر الذّهبيّ للمواطن بلا رأس، فلم يفكّر أحد في أن ما يُؤكَل أو يُشرَب قد يحتاج كما يفترض المنطق إلى أن يصرّف، على عَدِّ أن كل ما يُملأ لا بدّ أن يفرَّغ عاجلاً أو آجلاً في مكان ما. ولأن الطبيعة لم تنتظر يوماً رضا أيّ كائن بقراراتها حتّى تنفّذها، فكان الناس كلّما اضطرّوا إلى تفريغ ما بأمعائهم ومثاناتهم لجؤوا إلى الأزقّة المظلمة ومداخل العمارات وأسفل القناطر وجداول المياه، متفادين أماكن راقية، تصنع فخر الآلهة، وترسم اللوحة الجميلة للمدينة الدولة، واستمرّ هذا الوضع حتّى أصبحت البلد "مَبْوَلة" عظيمة، عوّضت المراحيض العمومية بنحو ما.

المهمّ أن القطعة النّقديّة استقرّت عند عتبة محلّ الموادّ الغذائية المغلق في مثل تلك الساعة. ولأن محافظة الشرطة كانت بجوار المحلّ، لم يحاول عصام كاشكاصي رغم حاجته لمقابل القطعة الذّهبيّة البحث عنها، خوفاً من أن يصادف رجال الشرطة الذين كان يتحاشاهم منذ وقت للسبب نفسه الذي يجعل "ولاد الفاميليا" من أمثاله يتحاشونهم، والذي لم يكن إلا الشعور المزمن بأنهم متّهمون باقترافهم لجرم ما. كان شعوراً ورثوه مع جيناتهم التي جعلت منهم نوعاً بشرياً لا مجاهداً ولا حَرَكياً، آيلاً للانقراض رغم كثرتهم، فالتّطوّر لا يعني أن يكون البقاء للأقوى ولا للكثرة، بقدر ما هو القدرة على التّكيّف فحسب.

الكاتب

كان رجل الشرفة كاتباً. ومع أنه كذلك، فلم يكن يحمل أيّ اسم رأى أنه يصلح ليُكتَب على غلاف أيّ كتاب، يمكن أن يُنشَر، فقبل أعوام حين همّ بنَشْر أوّل كُتُبه، تخيّر له اسماً، عثر عليه بالصدفة في كتاب كان قد اشتراه من بائع كُتُب قديمة.

كان هذا الاسم مكتوباً بقلم رصاص على صفحة بيضاء، تفصل بين فصلَيْن منه. رنّ في أذنه وهو يبلّل شَفَتَيْه به أوّل مرّة. فقد بدا له أنه اسم أدبي يستحقّ أن يوقّع به كُتُبه.

غير أن الذي شدّه إليه كان أمراً مغايراً تماماً، ففي تلك الصفحة البيضاء وقبل أن يقرأ الاسم، وقعت عيناه على ملاحظة كُتبت بقلم الرصاص نفسه بالخطّ الرديء نفسه: "ظاهر أن هذا الكاتب تعلّم الكتابة في مرحاض ..".

صُدِمَ في البداية، ثمّ تمالكه الضحك لجرأة صاحب الفقرة، فقد كانت ملاحظة تخصّ كتاب"بندول فوكو" لأمبرتو إيكو. كانت هذه الجملة كفيلة ليقرّر توقيع أوّل رواية له باسم صاحب لتعليق، ليولَد هذا الرجل في سنّ الخامسة والثلاثين.

في الحقيقة لم يضطرّ الكاتب لاختراع أيّ شيء عنه. اكتفى بالبحث عن صاحب الاسم أين اعتقد أن يكون فحسب. فكّر في البداية في الوظائف الصغيرة كلها التي قد يشغلها رجل يتوهّم الإبداع من غير أن

يبدع. فالحماقة الذي حُرّرت به تلك الجملة، جعل الكاتب متيقّناً بأن صاحبها أكثر حماقة، وأنه أكثر إغراقاً في وَهْم أنه كاتب عظيم، تحالفت ضدّه الصدف أو الأقدار، لتغمر موهبته. كان هذا سبباً كافياً للبحث عنه، على أمل أن يقبل بمهمّة واحدة فقط، يوكلها إليه الكاتب، وهي أن يصبح كاتباً من غير أن يكتب شيئاً.

هكذا توجّه الكاتب بعد تفكير بمجرّد أن أنهى روايته الأولى إلى دار الصحافة، آملاً في أن يصْدُق حدسه، ويعثر على الرجل صاحب اسمه هناك.

في ذلك العام، في شهر فبراير بالتحديد ولج الكاتب لأوّل مرّة عتبة دار الصحافة. وهو مكان جمع بغرابة كل مَنْ يمكن تصيّدهم من أناس جُبلوا على نوع واحد من الوَهْم، بحيث اعتقدوا طيبة أو جهلاً أو نفاقاً بكلمة لم تكتب قطّ في قواميس المدينة - الدولة، لتفهمها عقولهم، وتنطق بها ألسنتهم المصقولة على معارضة مَنْ يساندونهم حقيقة. يكتبون "حرّيّة". ينطقون "حرّيّة"، ولكنهم- في عقولهم وقلوبهم - يعرفون أنها مجرّد وَهْم، كلمة لا معنى لها، اسم دلع لعاهرة، يرغب الجميع في ركوبها.

في هذا المكان عثر الكاتب على "الرجل صاحب اسمه". وكما توقّع، لم يحتج بعدها إلا ليُخبره عن رغبته حتّى قبل اقتراحه. في النهاية لا يحتاج الواحد لأيّ حيلة، يُقنع بها العاهر بالمزيد من العهر.

هكذا منح الكاتب نفسه اسماً لم يُولَد به، وأهدى هذا المدينة - الدولة، كاتباً متهوِّراً، ممعناً في السمنة والقبح والغرور والوَهْم. منح هذا الوطن البائس كاتباً يشبهه في البؤس باسم "الرجل صاحب اسمه".

كان هذا قبل أكثر من عشرة أعوام، وبلا شكّ، أصبح الرجل صاحب اسمه معروفاً. على الأقلّ في الدائرة التي أراد الكاتب أن يكون فيها كذلك.

سبع روايات ... جيّد.

خصوم ... لا بأس ...

حلفاء ... ممتاز.

قرّاء في كل بلد .... رائع.

ترجمات ... أكثر من المتوقّع

ثمّ ماذا؟.. لا شيء. ما زال الكاتب هو هو .. كاتباً متخفّياً. اسماً مجهولاً، يستمتع بمشاهدة خلقه يتسلّق سلّماً، لم يُبتَكَر من أجله. لسنوات، نجح الكاتب في إيهام نفسه بأنه يجد متعة في رؤية شخص فاشل يدّعي النجاح. والطريف أنه لم يكن يدّعيه فحسب، بل كان نجاحاً حقيقياً رغم التّهوّر الطّبيعيّ للرجل صاحب اسمه. فقد كان أحمق، يستعدي الناس بكل وسيلة. ومع ذلك لطالما اعترف الكاتب بينه وبين نفسه بأن الرجل صاحب اسمه أحسن أداء الدَّوْر إلى درجة أنه صار مستمتعاً بظهوره على التلفزيون، بوجهه السمين وكرشه التي لا يُحسن إخفاءها.

في أوقات ما، كان الكاتب يتوهّم أن في داخله مشاعر تجاهه، غير المتعة والاحتقار الذي كان يزيد من متعته. كان الرجل صاحب اسمه لعبته التي نفخ فيها الروح لتتحرّك وفق ما يشاء.

وكان انعدام الموهبة لديه وإدمانه للشهرة والظهور جعلاه طيّعاً أكثر من اللازم، حتّى بدأ الكاتب يتفهّم ذلك الشعور الذي ينتاب الأسياد، الآلهة، أنصاف الآلهة في المدينة الدولة، وهم يشاهدون طاعة المواطنين بلا رأس، وإدمانهم لحياة لا يعيشونها. بشكل ما، أصبح الكاتب إلهاً. يملك دميته. يستمتع بإدمانها وبذلها وبطاعتها العمياء. لكنْ، على عكس الآلهة الجديدة القابعة في أعالي المدينة، بدأ يفقد الإيمان بقدرته الأبدية على

الاستمتاع. أصبحت فكرة بقائه في الظّلّ تؤرّقه وتجعله يفكّر في سؤال لا يصحّ أن يطرحه على نفسه أيّ إله: "ما جدواي؟"، وإن كان إله متربّصاً، لم يَعْتَدْ بعد علوّ الشرفات.

وعلى عكس ما توقّعه الرجل صاحب الاسم قبل أكثر من عشر سنوات، لم يرتبط به الكاتب إلا عبر ملفّ يرسله إليه كل سنة عبر إيميلات مختلفة، وفي التاريخ نفسه. لم يكن الرجل صاحب اسمه يعرف اسم الكاتب. ولا يبدو أنه فكّر في البحث عن حقيقته ولا مرّة. كان مكتفياً برسالة يبعثها إليه في الثلاثين مايو من كل سنة مرفقة بنصّ رواية جديدة.

إلا إن الأمور لم تجرِ وفق ما خطّط لها مسبّقاً. فقد مرّت سنتان لم يكتب فيهما سوى أفكار تراوده، حيث كان يتحمّس لها في البداية، ثمّ سرعان ما يجد نفسه في زقاق بلا منفذ. لم يعد شيء يُلهمه كما في السابق. لا أفكار إلا التي تقود كلها إلى حقيقة أنه أصبح كالرجل صاحب اسمه مجرّد خَوَاء، منذ أن قرّر أن يزور لأوّل مرّة قبر أُمّه بعد عشرة أعوام من دفنها، بعد أن اعتقد أنه تخلّص من ذكريات الموت، تلك التي نُقشت في رأسه منذ طفولته، التي لسبب يجهله، لم تبدأ باكراً، وبالكاد يذكر منها شذرات تصدّقت بها ذاكرته عليه، لئلا يُصدِّق فكرة أنه وُلد كبيراً.

كل ما كان على يقين منه أنه جاء إلى هذا العالم وكفى، كان تاسع ولد تُنجبه أُمّه، ويبقى على قيد الحياة. حافظ على مرتبته الأخيرة بين إخوته، حتّى حين وُلدت بعده شقيقة بلا اسم، لم تعمّر أكثر من أسبوع.

وقتئذ، كان في الرابعة من عمره، وفي هذه السّنّ لم يكن قد امتلك بعد ما يليق من غباء بشري، ليصف الموت بأيّ شيء. لم يكن جميلاً ولا قبيحاً، لم يكن مؤلماً ولا ممتعاً، لم يكن أمراً يحبّه أو يكرهه. كان الموت موتاً فحسب، غياب من نوع ما .. نوم أطول من العادة.

احتاج إلى سنين أخرى، ليفهم بأن الموت شيء بغيض. كفّ كبيرة تأخذ الناس إلى مكان ما، بعيداً عنه، قريباً أيضاً. كان أمرا محيِّراً أن يفهم ما يصنع الموت في الأبعاد: قريب وبعيد في آنٍ واحد.

وقتها، أخبرتْهُ أُمّه أن شقيقته ماتت، لأن الله يحبّها. سألها: "ألا يحبّنا الله نحن أيضاً؟". أجابتْهُ "إنه يحبّنا، ولكنه لن يأخذنا إليه الآن". سألها "لمَ؟"، أجابتْهُ "لأنه يحبّنا". كان الأمر محيِّراً أيضاً أن يفهم ما يصنعه الحبّ في الله أيضاً.

لمدّة طويلة، بقي يفكّر في الموت على أنه طريقة الله للتعبير عن الحبّ .. يحبّنا جميعاً، وحين يشتاق إلينا يُميتنا، لنكون معه، ولكنه كان يتساءل أيضاً "إذا كان يحبّنا بهذا القَدْر، فلمَ لم يُبقِنا معه منذ البداية؟ لماذا كان عليه أن يخلقنا، ثمّ يُميتنا، لنكون معه؟!"..

في طفولته، لم يعرف الموت إلا مرّة واحدة، تلك التي فيها ماتت شقيقته. تمنّى لاحقاً لو أنها كانت آخر مرّة يعرفه فيها، بيد أنها لم تكن الأخيرة. رآه مجدّداً في وجه جدّته من والده، ثمّ أبيه وأخيراً في وجه أُمّه، فقد كان آخر شخص رأى وجهها.

في قاع القبر وهم يضعون جثّتها، تخيّر مكانه، ليتمكّن من رؤيتها قبل أن توارى التراب. في لحظة بلا معنى ابتسم وهو يشيح عن وجهها الكفن الأبيض. فعل ذلك فقط، ليتأكّد من موتها، وينصرف أخيراً إلى حياته، ولكنه وعلى عكس تمنّياته، بقي متسمّراً في تلك اللحظة، يأسره وجه نحيل بفم مزموم وعينَيْن مغمضَتَيْن. لقد نسي في غمرة تهوّره أن أكثر ما رغب في رؤيته وهو يشيح الكفن عن وجهها هما عيناها البنّيّتان، الكبيرتان، الشغوفتان بحياة لم تعد فيهما. أدرك وهو يحدِّق في وجهها

المقنع بالموت بأنها رحلت، وأن أكثر ما حصده لحظتها كان ذكرى وجه لم يعد وجهها.

لم يبكِ قبل تلك اللحظة. حتّى إنه في فجر ذلك اليوم حين أمسك بيدها والروح تنسلّ من جسدها الضئيل، اكتفى برسم ابتسامة على وجهه، آملاً في أن تكون آخر صورة تحملها أُمّه معها إلى العالم الآخر.

كان بين الحين والحين يمرّر كفّه على وجهها. يضع يده على خدّها، مُقبِّلاً جبينها، مثلما كانت تطلب منه وهو طفل. فقد كان من عادتها أن تطلب منه فعل ذلك. تقول له: "حبيبي .. تعال. أعطني حناناً"، فيهرع إليها، ويفعل ذلك وهي تضحك. أحبّ فعل ذلك في صباه، وتوسّد خصرها كلّما واتتْهُ الفرصة.

لم يبكِ لحظة أشاح الكفن عن وجه أُمّه، ولكنه بمجرّد أن أعاده على مُحيّاها، انفجر بكاء وهو يحاول الخروج من القبر الذي أرقدوها فيه، غير مُصدِّق أنه امتلك شجاعة حمل جثّة أُمّه في كفنها. لم يصدّق حتّى وهو داخل القبر أنه نزل فيه طواعية، ليضعها فيه، لا لشيء إلا لأنه رغب في أن يكون آخر مَنْ يرى وجهها. آخر مَنْ يلمس جسدها الذي انفصل عنها بقبلة الموت، ليصبح مجرّد جثّة فحسب.

لم يكن ما رآه وجهها، كما لم تكن الجثّة التي حملها ووضعها في القبر، وأهال التراب عليها هو جسد أُمّه. لهذا ربمّا لم يرغب في الالتفات وراءه، بمجرّد أن خرج من القبر، ممتثلاً لصوت هادر في رأسه، يأمره بالانصراف بعيداً، وبألّا ينظر خلفه.

استمرّ الصوت لسنوات في رأسه، يمنعنه كلّما اشتاق إلى أُمّه أن يزورها، حتّى توقّف الصوت فجأة، وزار أخيراً قبرها بعد سبع سنوات من موتها.

حين وقف عند شاهد قبرها، قرأ اسمها عليه مُتصوّراً بأنه سيجهش بالبكاء. قرأ تاريخ مولدها ووفاتها، وتلك العبارة السخيفة "المغفور لها"، وكأن ثمّة احتمال بوجود شيء يغفره الله لها.

وعلى غير ما توقّع، لم يبكِ. كل ما فعل أنه ظلّ واقفاً هناك. لم يشعر بشيء أيضاً: لا سعادة ولا حزن. كان مجرّد رجل يقف أمام قبر، لم يعد على يقين بأن ثمّة ما يربطه به.

بعدها، لم تخطر أُمّه على باله قطّ، حتّى إنه لم يعد يذكر وجهها. كل ما كان على يقين منه، هو أنها قبل أعوام قليلة فقط كانت عالمه كله. أمّا الآن - في تلك اللحظة - لم تعد شيئاً.

قبل سبعة أعوام، مباشرة بعد أن دفن أُمّه انصرف إلى حياته. أحبّ. تزوّج. أنجب. كتب كُتُباً. سافر. فعل كل ما يجدر بكائن يدّعي أيّ علاقة بالحياة أن يفعل، وكاد في غمرة ذلك كله أن يقتنع بأنه راض عن حياته. كاد فحسب، فمع ادّعائه السعادة، كان يشعر بفراغ يزداد اتّساعاً في صدره. وفجأة، ومن غير سبب واضح، تمكّن الفراغ من ابتلاعه. لم يعد ثمّة في الحياة ما يدعوه إلى الحياة، لولا ذلك الضمير البائس الذي أجبره على معاداة الموت، والادّعاء كذباً بأنه أفضل حالاً بقلب ينبض كل يوم.

لم يكن يخشى من الموت، فلم يؤمن قطّ بأن ثمّة شيئاً خلف ستار حياة لم تعد تعني له شيئاً. ولكنه لحظة وقوفه على قبر أُمّه حدث معه شيء فارق، أفرغه منه. شيء ما، سحب ذلك الوَهْم كله الذي يفترض بكل إنسان أن يحتفظ به في مكان ما من روحه. سُحب منه فجأة من غير سبب محدّد، يمكنه تذكّره.

ليلتها أخبر زوجته بأنه زار قبر أُمّه. سألته كيف وجدتَها؟ استغرب أن

تسأله عن أُمّه وهو لم يزر إلا شاهد قبر. حتّى الجثّة التي حملها قبل سبع سنوات لم تعد هناك.

أجابها بلا تردّد: "ميتة .. وجدتُها ميتة كما كانت يوم وفاتها".

لم ينسَ النظرة التي رمقتْهُ بها. ومع ذلك لم تكن كافية لتجعله يُعلِّق بأيّ شيء. لم يقل غير الحقيقة. كانت ميتة فحسب. ربمّا لهذا لم يخبرها عن المشاعر التي انتابتْهُ وهو يقف على ذلك القبر. لم يُخبرها بأنه لم يشعر بشيء. لم تراوده أيّ ذكرى جمعتْهُ يوماً بوالدته. لم يُخبرها بأنه كان لامبالياً، متلبّداً على نحو غريب بالنسبة إلى كائن يدّعي أنه من البشر.

كان هذا أوّل أمر يخفيه عن زوجته، فقبل تلك اللحظة لم يحتفظ بأيّ سرّ لنفسه، حتّى خياناته لها كان لا يلبث وأن يعترف بها بمجرّد أن تحدث، على الرغم من يقينه بأنها لن تقدر على كشفه بنفسها.

في الحقيقة، لم يهتمّ يوماً بصورته عندها. كل ما شغله طوال حياته، صورته بالنسبة إليه، فمجرّد فكرة أن يعيش بوجهَيْن كانت تُقزِّزه إلى حدّ يجعله في كل مرّة، لا يحتفظ بأيّ سرّ معها.

مرّت سنتان بعد ذلك لم يحدث فيهما شيء يُذكَر، باستثناء أنه انتقل من بيت ريفي، أقام فيه وعائلته لسنوات، إلى شقّة من غرفَتَيْن في وسط العاصمة.

مع انتقاله تغيّرت عاداته في الكتابة، فلم يكن له هناك مساحة ينزوي فيها. صحيح أنه في بيته الرّيفيّ كان ينتظر أن ينام الجميع ليكتب، ولكن موقع البيت كان يمنحه شعوراً وإن كان غير حقيقي بالعزلة، فلطالما ارتبطت عنده الكتابة بالوحدة والانطواء. في شقّته الجديدة، لم يكن لديه

مساحة تسمح له بالتّوقّف ولو لساعات عن الحياة الواقعية والانبعاث في واقع موازٍ، يكون فيها كاتباً فحسب .. مساحة يكون فيها هو.

هكذا ومع ابتعاده عن الكتابة، بدأ يشعر بالملل من كل شيء. لم يعد قادراً على الشعور بالمتعة كما في السابق. كل ما كان يفعله هو الاستيقاظ صباحاً، والعمل على أن يكون أباً وزوجاً جيّداً، حتّى إذا جاء الليل حاول بأيّ طريقة أن ينام من دون أن يفكّر في شيء محدّد. كانت أكبر مخاوفه أن يختلي بنفسه، ويكون مجبراً على مواجهة حقيقة أنه لم يعد يملك موهبة الكتابة. حقيقة كان ليضطرّ على مواجهتها لو لم يحدث أنه ومن دون مرض طارئ ولا تفكير مسبّق، قرّر التّوقّف عن التدخين.

حدث ذلك ذات ليلة وهو واقف على شرفة شقّته يدخّن. مع انتهائه من سيجارته تلك، قرّر أن تكون آخر سيجارة في حياته. ولأنه لم تكن لديه منفضة سجائر، ألقى بها إلى الشارع وهو كالمسطول يراقب مسار سقوطها إلى تحت. كان مركّزاً على نحو جعله يتبيّن وبدقّة مكان سقوطها.

كان "الكاتب" يقيم في آخر عمارة من المنعطف الثالث من حَيّ ترولار، صعوداً من شارع الدكتور سعدان، وهو المنعطف الوحيد الذي لحسن الحظّ أو لسبب معروف لم يعرفه، كان مضاء على نحو كامل، ففي العادة لا تحظى الأحياء الدّاخليّة أو الفرعية في العاصمة بأيّ اهتمام، تكريساً لمَثَلٍ جزائري قديم يقول إن ما لا تراه العين لا يُوجِع القلب.

هكذا تمكّن من رؤية موقع سقوط عقب سيجارته. وهكذا وهو ينظر إليه راوده أخرق سؤال طرحه يوماً على نفسه: "إلى أين تذهب أعقاب السجائر كلها التي ألقيتُها من شرفة شقّتي؟"

ما إن دخل غرفة نومه مبتسماً، حتّى سألتْهُ زوجته عن سبب ابتسامته

تلك. لا يعني سؤالها بأنها لم تره مبتسماً قطّ ، أو أن يكون لابتسامته سبب ما، بل فقط ولأنها زوجته، كان بمقدورها أن تُميِّز بين ملامحه، لتدرك بأن ابتسامته تلك لم تكن إلا شكلاً مهذّباً من الضحك.

أخبرها عن رغبته المفاجئة في معرفة مصير أعقاب السجائر كلها التي ألقى بها من شرفة الشّقّة. أخبرها بذلك من غير أن يُطلعها بقرار توقّفه عن التدخين، من باب أنه لم يدخل حيِّز التنفيذ بعد. ضحكتْ وهي تقول بأن مصيرها بلا شكّ هو نفس مصير أيّ قمامة أخرى، فعلّق على كلامها بأنه من المؤسف أن تنتهي إلى قصر الحكومة، فانفجرت ضحكاً، وقد فهمتْ ما قصده بذلك، فقد كان بين قصر الحكومة وشقّتهما سلّمان ومنعطف. وبين الشّقّة وشارع الدكتور سعدان سبعة سلالم وخمسة طوابق. فقد حدث أنه في ساعة من العبط الحياتي المتسرّب بين شقوق أسئلة بلا جدوى، حسب عدد الدُّرج. كانت١٢٢ درجاً . تصوّر وهو يفعل ذلك بأنه يُنجز فرضاً، قد يسعده إنجازه ذات يوم. بالطبع، لم يسعده يوماً، ولم يفض ذلك الجهد كله في حساب عدد درج السلالم والطوابق إلى أيّ غاية. كل ما في الأمر أنه فعل ذلك فحسب.

الفصل الثالث

احتاج جمال حميدي إلى خمس دقائق فقط منذ استيقاظه، ليدرك بأن اختفاء النوافذ والأبواب لم يقتصر على شقّته فحسب، بل امتدّ إلى كل نوافذ وأبواب حَيّه. كان مشهداً مخيفاً، رغم عشقه للتّلصّص، أن يتمكّن بلا جهد من رؤية ما كان يفترض أن تخفيه الأبواب الموصدة والنوافذ المغلقة. ففي النهاية، لا يمثّل التّلصّص غاية في ذاته، بقدر ما هو متعة فريدة يجدها المتلصّص كلّما تمكّن من بلوغ ما تخفيه الأبواب، ومع انعدامها يصبح عملاً بلا متعة.

كان مُدركاً لهذه الحقيقة، ومُدركاً أكثر لحقيقة أنها مسألة وقت فحسب، ليحدث ما يجب أن يحدث في عالم بلا أبواب.

وبالفعل، لم يحتج الأمر وقتاً ليكتشف الناس ما اكتشفه جمال حميدي قبل حين. تفاجؤوا في البداية. ارتبكوا لبعض الوقت، ثمّ ولأنهم كانوا مواطنين بلا رأس، ممّنْ ابتكرتهم الحكومة حديثاً، بحيث كانت بطونهم تحتلّ أكبر مساحة من أجسادهم، بدا لهم أنه من البديهي التّوجّه إلى أهمّ رجل في المدينة الدولة يفهم في الأبواب، والذي كان بلا شكّ جمال حميدي، على عَدِّ أنه عميد البوّابين في البلد.

وكانت الساعة الثامنة صباحاً، حين قرّر جمال حميدي الخروج إليهم على كرسيّه المتحرّك. كان برفقته موح بوخنونة وعدد كبير من البوّابين،

تمّ استدعاؤهم باكراً للاجتماع بالعميد، فقد كان الأمر من الخطورة ما استدعى اجتماع هؤلاء، من أجل الخروج إلى الناس برأي موحّد، يمنحهم بعض السكينة. وهو ما حدث بمجرّد أن انتهى جمال حميدي من خطابه الطويل الذي بدأه بجملته الذّكيّة "انتابني اليوم شعور غامض بحدوث الأمر"، وأنهاه بما اعتاد سماعه في خطب السّياسيّيْن من أن المجد والخلود لشهدائنا الأبرار. كانت خطبة طويلة استغرقت ساعَتَيْن، تناولت كل شيء إلا حادثة اختفاء الأبواب، وتخلّلتْها نكت، لم يضحك لها إلا موح بوخنونة وبقية البوّابين طبعاً، ولكن جمال حميدي كان من الذكاء والفطنة، بحيث أدرك بأن مواطني المدينة الدولة لا يحتاجون إلى إجابات، بقدر حاجتهم إلى رجل يُوهِمهم أنه يملك تلك الإجابات.

ومع أنه كان سعيداً بانصراف الناس إلى مشاغلهم بلا أيّ حادث يُذكَر، فقد ظهر لجمال حميدي أنها قضية وقت ليدركوا أنه تمّ تخديرهم لا غير. لهذا فإنه بمجرّد أن عاد إلى مكتبه، والذي لم يكن إلا رواقاً ضيّقاً بمدخل عمارته، اعتادت منظّفاته العجائز أن يضعنَ فيه مكانسهنّ ومختلف المنشفات وموادّ التنظيف، سارع بسَدِّ الفراغ الذي كان في وقت سابق باباً بأيّ شيء وجده في الجوار، حتّى إنه لمزيد من الأمان، أمر موح بوخنونة أن يقف هناك مكان الباب المختفي، حتّى يشعر بشيء ممّا اعتاد الشعور به كلّما أغلق الباب خلفه.

كانت الفكرة أن يختلي بنفسه قليلاً، ويتأمّل ما حدث اليوم. إلا أنه وهو جالس إلى مكتبه، ينظر إلى موح بوخنونة بأنفه الذي لا يكفّ عن السيلان، وما يعني ذلك من صوت مزعج يُصدره من خياشيمه كلّما أراد أن يسحب ما يخرج منها، أدرك أن الاختلاء بالنفس لم يعد أمراً ممكناً بعد اختفاء الأبواب. لا أحد الآن بمقدوره فعل ذلك، ولا فعل أشياء كانت إلى فجر هذا اليوم بديهية وسهلة، لا تحتاج إلى أيّ جهد.

في الوقت نفسه، بدأت المدينة الدولة، تلك المسمّاة عاصمة، تعيش فوضى من نوع آخر، لم يسلم منها أحد، بمَنْ فيهم أنصاف الآلهة الذين عادة ما يكتفون بالبقاء في أعالي المدينة، يراقبون من فوق ما يحدث في العالم السّفليّ. كانت هذه أوّل مرّة يشعرون فيها بالخوف. وكان شعوراً غريباً بالنسبة إليهم، سرعان ما شلّ تفكيرهم وهم يرون بأعينهم ما يحدث حين تختفي أبوابهم المغلقة في كل حين.

لكن الذي أرعبهم أكثر، لم يكن آلاف المساجين الذين فرّوا من سجونهم، بسبب اختفاء الأبواب. لم يكن أيضاً عدم شعور الشعب بأمان كانوا يُوهِمونه به، ولا ضياع بلايينهم التي جمعوها منذ أن تقرّر خلف البحر أن يصيروا آلهة جديدة، فحتّى وإن اختفت جميع أبواب البنوك والخزائن المكدّسة فيها أموالهم، كان بمقدورهم دائماً أن يحافظوا على القدر نفسه من الثراء. يكفي فقط أن تهدأ الأمور قليلاً، ليُعوّضوا خسارتهم. وإذا لم تهدأ لسبب ما لم يخطر على بال أحد، فيكفيهم أن يرحلوا "خلف البحر" ليعيشوا ملايين السنين من الرخاء، بفضل ما كنّزوه هناك.

ما كان يخيفهم حقّاً، هو اختفاء ذلك الخطّ الوَهْميّ الذي يفصل عالمهم وعالم الأوغاد. وهو خطّ احتاجوا لرسمه إلى عقود من الوَهْم والدم والأكاذيب التي خلاصتها أنهم يتواجدون في مواقعهم فقط لأنهم مُجبَرون على البقاء في تلك المواقع حبّاً في الشعب، خوفاً على ثورته العظيمة التي صنعوها فقط من أجلهم، والتي وإن انقضى عليها أزيد من ستّين عاماً، ستظلّ ثورة تمنح الشعب عظمة، لا أحد عرف يوماً معناها بالضبط.

كانوا يحقنون خطبهم بمثل هذا الهُرَاء، وهم على يقين بأنهم يخاطبون شعباً ابتكروه. وفي الوقت نفسه تناسلوا فيه بنحو مفزع، مبقين على حدّ معقول من الحماسة والحلم في عالم الأوغاد، بحيث كانت الأحلام تقف

طوابير في انتظار أن يأتي دورها لتتحقّق. لم يكن ثمّة من شكّ في أن الأمور، كلها، ستؤول إلى واقع تقتل فيه الآلهة ربّها من دون أن تقتله حقّاً، وتُقنِّن قانوناً جديداً، يفرض على الجزائريّيْن الاختيار بين عالم لا إله فيه، يسوده الصمت القسري والسعادة المصطنعة والفخر بوطن تعهّر بكل شرف، وبين عالم تسوده الفوضى، تحكمه الآلهة نفسها، بنحو أكثر قسوة ودموية. عالم يتشكّل فيه الوطن بالموت، بالدم وبكل ما له علاقة بسنوات القتل الممنهج، التي كثيراً ما كانت تحقن خطابات الآلهة الجديدة.

وكان على جمال حميدي أن يلتجئ إلى هؤلاء، على الرغم من علمه بأنه مجرّد إجراء لن يغنيه، فمنذ خمس سنوات، لم يعد لهذه الآلهة القابعة في أعالي المدينة أيّ إله رئيس منذ أن قتلوه حيّاً، حين أبلغهم برغبته المفاجئة في التّنحّي. كانت الفكرة أن يُبقوه حَيّاً بالقدر الكافي الذي يسمح لهم بالبقاء في صورة معاونين له لا أكثر، ولكنهم، في الحقيقة، كانوا يقرّرون في مصائر الناس وحياتهم. هكذا أبقوا على جسد ربّهم حَيّاً بعد أن سحبوا الروح منه. فكان يظهر للناس بوجهه الزّومبيّ، مبتسماً، رافعاً يده في الهواء يُحيِّي الجماهير، مجتمعاً ببقية الآلهة ومُمارِساً مهامّه الرّئاسيّة النبيلة.

ولأن الطبيعة تنفر من الموتى، توقّف مفعول العقاقير في جثّة الإله الزّومبيّ بالنحو الذي أملتْهُ الآلهة الأخرى. في البداية توقّف عن الابتسام، ثمّ صار من الصعب أن يرفع يده كما كان يفعل من قبل. وفي الأخير لم يعد يظهر للناس إلا مجتمعاً بمرؤوسيه، يُبحلق في أوراق بيضاء، متمتماً بكلام لا تفهمه حتّى شفتاه.

وفي لحظة اختارها الأرباب بعناية توقّف عن الظهور، لتحلّ محلّه صورة كبيرة في إطار ذهبي، كانت تُعلَّق في كل مكان، يُفترَض أن يتواجد فيه، حتّى ساد في اعتقاد الناس أنه منشغل بمشاكلهم، إلى درجة أنه لم يعد

بمقدوره الظهور، ثمّ حين بدأ الرجل الوسيم في نشرة الأخبار، يقرأ في كل ظهور له، رسالة أو بياناً للإله الرئيس، شعر الناس بطمأنينة كل مؤمن بحقّ، فحتّى الله وهو الله، لم يظهر لأحد بوجهه، واكتفى لهداية الناس بما كان يرسل إليهم من رُسُل وأنبياء، يحملون كلمته الطاهرة وكُتُبه المقدّسة.

ومثلما ظهر ابن لله هو المسيح، وشريك هو روح القُدُس، ظهر للإله الرئيس إخوة وشركاء. بشكل أو بآخر، حدث في المدينة الدولة ما لم يتوقّعه أحد، حين نزل ملكوت السماء إلى الأرض، بكل ما فيه من عرش وملائكة وشياطين وجنّة وجحيم.

كان جمال حميدي مُدرِكاً لهذا كله، ليس لأنه أكثر ذكاء من غيره، بل لأنه بسبب سنّه غالباً، بقي في جمجمته بعض المخّ الذي لم يتوفّر في مواطني الألفية الثالثة، ممّنْ مسختهم الآلهة الجديدة إلى مواطنين بلا رأس، تحتلّ كروشهم أكبر مساحة من أجسادهم، تماماً كإبراهيم بافولولو وجاره الكاتب.. رجل الشرفة. والذي لأسباب تتعلّق بالثقافة، كان يعتقد - قبل اختفاء أبواب المدينة الدولة - أن في باب القَدَر ثقب مفتاح، وأن لا أحد غير المشيئة قادر على تحريكه ليفتح الباب. لكنْ، لو تصادف أن بلغه الكاتب، فبمقدوره أن ينظر من خلال ثقب الباب، حينئذ سيرى العالم الذي سيدّعي لاحقاً أنه تخيّله، واقعاً صرفاً، شكّلتْهُ المشيئة قبل الأزل. لكنه - لسبب قد يربطه الفقهاء المؤمنون بالقدرة، والفلاسفة الملحدون بالممكن، والكتّاب الطيّبون بالخيال - يظلّ مركوناً في زاوية عمياء من غرفة الاحتمال. الفكرة، أن العالم من خلال هذا الثقب ليس أكثر من مجرّد احتمالات واردة الحدوث. لكل احتمال مسار. وكل مسار يشكّل قَدَرَاً. وكل قَدَر يتجسّد في قصّة ما.

وحدث أن نظر الكاتب من خلال هذا الثقب مرّتَيْن: مرّة حين كان

على شرفة شقّته، يتتبّع مسار عقب سيجارته إلى أسفل، ومرّة لاحقة حين وجد نفسه متسمّراً عند عربة التحف والذكريات، هناك، غير بعيد عن البريد المركزي.

في المرّة الأولى، راوده شعور حالم بأنه خلف قصّة ما: رجل يلقي بسيجارته من شرفته، فيباغته سؤال عبثي عن مصيرها بعد أن ترتطم بالأرض. ينزل إلى الشارع، ويعلّمها بعلامة ما من أجل أن يقتفيها لاحقاً. تستمرّ القصّة مع هذا الرجل الأحمق، الفضولي الغارق في عبثيته المريضة، بحيث يحكي عن كل مكان يبلغه عقب سيجارته: شارع الدوق ديكار، نهج ريمون ... شارع ٢٤ فبراير، سلالم الدكتور سعدان، سلالم ترولار، السوق الصغيرة، النفق الجامعي، شارع باستور ...

فكّر أنها ستكون قصّة عبثية رائعة، تروي حكاية مدينة لم يعد يجمعها بالمُدُن غير عماراتها البيضاء والادّعاء الكاذب بأنها عاصمة لدولة ما .. بدت فكرة رائعة في حينها، كفكرة توقّفه عن التدخين، ولكنها كالأفكار الرائعة كلها في بلد يستلذّ بالجلوسّ على حجر الحماقة، سرعان ما تبخّرت، ليحلّ محلّها واقع آثم بالروتين: الاستيقاظ صباحاً، إيصال الأولاد إلى مدارسهم، شراء مقتنيات البيت، الدوام، الجلوس بمقهى "كلوزال" في انتظار إلهام لن يأتي، ادّعاء المتعة في قراءة روايات سخيفة، تكلّف الشعور بالسعادة لأشخاص يدّعون صداقته، تملّق مسؤوليه في العمل، حضور ندوات كتّاب يبتسم لهم في العَلَن، وفي سرّه يتمنّى التّبوّل عليهم ...

كان واقعه انتهاكاً واضحاً للحلم. ومع هذا، لم يكن بمقدوره التّنصّل منه، ولا محاولة قلبه كما في السابق. كل ما استطاع فعله حينئذ هو التّشبّث بفكرة أنها مرحلة وتمضي، مع أن الصوت الهادر في رأسه كان يهمس له بعكس ذلك.

وعلى غير العادة، لم يُنجِه عناده ولا أيّ خطّة وضعها ليعود إلى نفسه، إلى هذا الكاتب الذي أضاعه في زحمة حياة لم يعشها، ولم يكن بمقدوره عيشها، وإن سعى إلى ذلك.

فقد وُلد الكاتب بالصدفة إنساناً قبل خمسة أربعين عاماً، من دون أن يُكمل الشهر الثامن في بطن أُمّه. ثمّ وُلد كاتباً بالصدفة أيضاً قبل عشر سنوات، من دون أن يسعى إلى ذلك. كانت الصدفة على الرغم من ادّعائه الكفر بها، أكثر ما سيَّر حياته ومنحها قِبلة ما، تماماً كما فعلت وهو واقف أمام عربة الذكريات القديمة في تقاطع شارعَي ديزلي وبيجو، حين لمح وجهاً أسود على صورة يعرضها صاحب العربة بين كل ما يعرض من صور للبيع.

لم يعرف قطّ السبب الذي شدّه إلى ذلك الوجه يومها. كل ما حدث أنه أُجبر على التّوقّف. تسمّر في مكانه، محدِّقاً في صورة متوسّطة الحجم مركونة في الزاوية اليمنى لعربة لم يعرها أدنى اهتمام من قبل، حتّى تلك اللحظة مرّ آلاف المرّات بجوارها من غير أن يثيره شيء يجعله يتوقّف عندها. ربمّا لأنه - حتّى تلك اللحظة - لم يتصوّر بأن ثمّة شيئاً بين كل تلك الخردة الموصوفة بالتحف ما سيجعله ولو زبوناً محتملاً أو فضولياً يسأل عن كل شيء وعن أيّ شيء، فقد كانت علاقته بالقديم، كعلاقته بالذكريات: سيّئة تحيل كلها إلى الموت.

كان الوجه لرجل في منتصف الأربعينيات، أسود كقطعة فحم. بأنف عريض وجبهة ضيّقة وشفاه غليظة. كان في الصورة مبتسماً، ولكن شيئاً في عينَيْه، صبغ تلك الابتسامة بذبول جعل الكاتب يشعر بأنه كان مُجبَراً على الابتسام.

تقدّم نحو العربة. كان هناك شابّ يمثّل دور المهتمّ ببعض العملات القديمة، وامرأة ستّينيّة بملامح أوروبية، تُقلِّب في ألبوم صور بالأبيض والأسود لمواقع في العاصمة. أغلب الظّنّ أنها التُقطت في بداية القرن العشرين، حين كانت العاصمة أنظف وأقلّ اكتظاظاً.

لسبب ما، كان الكاتب يحبّ تلك العاصمة، تلك المدينة. لم يعش فيها، ولكنّ يقيناً ساذجاً استحوذ عليه، جعله يتخيّل كيف كان سيكتب عنها لو عاش فيها. الآن يعيش ويكتب عن مدينة تشبهها. بالعمارات نفسها، بالشوارع والحارات والأزقّة أنفسهم. تشبهها فقط. مدينة فقدت روحها في زحمة البحث عن هوية ما.

"صباح الخير."، بادره صاحب العربة.

ابتسم له "الكاتب" وهو يقلِّب بين يَدَيْه صورة الرجل الزّنجيّ.

"إنها لرجل إفريقي من قبيلة "متنكاري". قال صاحب العربة من دون أن يضيف شيئاً.

كانت تلك طريقته لخَلْق نوع من التشويق. أغلب الظّنّ أنه كان يتوقّع من الكاتب أن يسأله:"متنكاري؟.."، المنطق كان يقول بأنه سيطرح عليه سؤالاً من هذا النوع، يصوغه فضول زبون لسلعة ما. لكنه وعلى غير ما توقّع، طرح الكاتب سؤالاً مختلفاً تماماً:

"بكم هذه؟". مشيراً إلى الصورة بين يَدَيْه.

أجاب صاحب العربة من غير تفكير "ألفا دينار".

لم يفاوِضْهُ. دفع المبلغ، ووضع الصورة في جيب جاكيته الدّاخليّ، وانصرف، من غير أن يلتفت خلفه.

كان سعراً مبالغاً فيه. أدرك البائع ذلك، وأدركه الكاتب أيضاً في حينه. فقد كان بمقدوره اقتناءها بخُمْس المبلغ، ولكنه لم يفعل.

لسبب ما، تعطّلت وهو يُقلِّب الصورة بين كفَّيْه، حواسّ العاصميّ الحذق .. آه على أوصاف العاصميّيْنْ لأنفسهم: حذقون، مارقون، أذكياء، وسيمون، مثقّفون، فايقين، زيرو نساء...، البقية مجرّد "كوافا" و"كَعَب" وشبارك.

مع تقدّمه في السّنّ، أدرك الكاتب أن العالم مختلف عمّا لُقِّنه في حَيّه صغيراً. فقد كان ابن حَيّ شعبيّ منح كالأحياء الشّعبيّة كلها في العاصمة جنسية لقاطنيه. لقد كانوا "ولاد العاصمة"، أناسا خارقين، مواطني مدينة الآلهة المحسودين على مكان إقامتهم. كانوا يعتقدون بذلك حقّاً. لم يدركوا حينها ولوقت طويل جدّاً بأن العاصمة التي طالما تبجّحوا بها، لم تكن إلا لعنة أصابتْهم لحظة ولادتهم فيها. لم يدركوا بأنهم كانوا يجترّون حماقات الإنسان الأفضل، حتّى لا يعترفوا بقصورهم في تحصيل أيّ شيء ذي قيمة. ومن أجل ألّا يواجهوا أيضاً حقيقة أن الأسياد كلهم، الآلهة كلهم، أنصاف الآلهة كلهم الذين لم يجرؤوا يوماً على معاداتها، وُلدوا خارج هذه العاصمة اللعينة، الملعونة، المقيتة إلى درجة أن أحسن ما تفعله هو التّبوّل على أبنائها.

انصرف الكاتب. مشى في اتّجاه ديزلي ليجد نفسه في شارع "تونجين". كان يحبّ المشي في هذا المكان الشبيه به. فقد كان فيه من القذارة ما يجعله يحسّ بنظافته.

تخيّر مقهى حقيراً غير بعيد عن "ملك اللوبيا"، مقهى يشبهه أيضاً. يشبه أبناء المدينة الدولة الفخورين بأُمّ ترفع ساقَيْها إلى السماء كلّما

شرعت في الدعاء. لطالما فكّر أنهم مجرّد خطأ مطبعي في كتاب الوجود. على الأقلّ كان هو كذلك. مجرّد كمبارس، يُؤثّث مشهداً، لا دور له فيه غير الوقوف بوجه، تتعمّد الكاميرا ألّا تُظهره أبداً.

بمجرّد جلوسه وطلب فنجان قهوة، أخرج الصورة من جيب جاكيته. كان المقهى مكتظّاً بزبائن، لا يجمعهم بالوسامة إلا حلم أن يكونوا وسيمين .. تماماً مثله. لم يتطلّع في وجه أحد، بمَنْ فيهم النادل الذي أحضر قهوته، ووضعها على الطاولة، متعمّداً إحداث ضجّة ما، ربمّا لينتبه إلى وجوده.

"صباح الخير". همس بحمق مخاطباً الصورة ..

" فيكَ ما يجعلني أعتقد أنني رأيتُكَ في مكان ما". أضاف مخاطباً صورة صنعت قبل قليل بهجة بائعها.

فعل ذلك فقط، لأنه اعتاد منذ طفولته محادثة الأشياء، كان يخاطب أيّ شيء يثيره، غير آبه أن يتصوّر من حوله أنه مجنون. كانت تلك طريقته ليُخرِج الفضول من صدره على شكل كلمات، من دون أن يعنيه أن تنتهي في قبضة الإصغاء.

وبالفعل، كان في صورة الرجل الزّنجيّ شيء يتوسّل فضوله. لم يعرف ما هو، ولكنه كان على يقين من وجوده.

قلّب الصورة على ظهرها. قرأ كلمة "Griga" مكتوبة بقلم حبري جافّ.

خمّن بأنها قد تكون اسم الرجل الزّنجيّ، ولكنه لم يكن متأكّداً من شيء بعد، إلا رغبته في اكتشاف هذا الذي أخرجه من لامبالاته، ليُعيده كما يبدو إليه.

حدثت في حياة الكاتب أمور كثيرة بدأت بفكرة ما، بصورة، بكلمة. لذلك لم يتعجّل في أن تنطق صورة الرجل الزّنجيّ، وتُخبره بالسبب الذي جعله ينجذب إليها. كان على يقين بأن فيها ما سيُبرّر تلك الحماسة التي تملّكتْهُ بمجرّد أن رآها، ودفعت به، وهو الرجل الموصوف في العادة بالبخل إلى أن يمدّ يده إلى جيبه، ليخرج منه ما لا يخرجه عادة في يومَيْن. فقد كان، بشكل ما، بخيلاً، حقيراً، لئيماً، متهوّراً، منافقاً، جشعاً، زير نساء، خائناً، متملّقاً، انتهازياً ... وكانت تلك صفات لأسماء اختارها لنفسه في كُتُبه، رغم أنه لم يُولَد إلا باسم واحد، لم يكتبه يوماً على ظهر غلاف.

كانت عودة الكاتب إلى تلك المقبرة اللعينة ووقوفه عند شاهد قبر أُمّه، ما بعث هواجس الشّكّ في نفسه. بطريقة ما، تكشّف الفراغ في داخله، ولم يعد بمقدور اللعبة التي اخترع أن تملأه. هكذا فكّر في التّوقّف عن الكتابة والاختفاء من حياة "الرجل صاحب اسمه" وكأنه لم يكن في حياته قطّ. وكان قادراً على فعل ذلك في أيّ لحظة.

في الحقيقة، لم يكن الاختفاء من حياة دميته قراراً، فكّر في اتّخاذه، بل تسليماً، لحقيقة أن اللعبة انتهت ولا جدوى من المتابعة. ومع ذلك، كانت الفكرة مغرية جدّاً في أن يشاهد من مكانه السقوط الهائل للرجل صاحب اسمه، رغم أنها لا تعني إلا سقوطه معه. ففي النهاية، ليس الرابح سوى شخص خسر أقلّ من خصمه.

أغرتْهُ الفكرة، وكان سيُنفّذها بلا شكّ، لو لم يحدث أن مرّ بعربة الذكريات تلك. وهو ما بدا أمراً غريباً في أن يؤجّل وجه مجهول مشاريعه كلها، ولكنه فعل.

غريجا .. كنتاري .. وجه أسود ..

ردّد ذلك، متأمّلاً الوجه في الصورة. فلطالما آمن بأن للكلمات قدرة خَلْق ما. على الأقلّ هي مفاتيح لأبواب، تولج العقل عوالم غير اعتيادية، نخالها في معظم الأحوال غير موجودة. تماماً مثلما فعلت الآلهة الجديدة قبل عقود، حين اخترعت لمواطنيها تلك الكلمة: جزائري .. كيف كان بمقدورها أن تحقن الناس بهذا الوَهْم، وَهْم الرجل الأفضل، الخارق، سليل ثورة المليون والنصف مليون .. جزائري، أيّ مسبّة هذه؟ أيّ خِرَاء وصفي جعل الناس يحفرون قبورهم بسواعدهم، تغمرهم السعادة بهذه الكلمة، بهذا الوصف، بهذا الانتماء إلى لا شيء.

كلمة واحدة حوّلت النهر. كلمة واحدة فقط، كانت كافية لتصنع الوَهْم.

"غريجا .. غريجا"

تمتم. همس، محدِّقاً في صورة الرجل الزّنجيّ.

"حدِّثني عنكَ .. أخبرني مَنْ تكون؟".

سأل الصورة لمرّة أخيرة قبل أن يقوم منصرفاً. والنادل يشيِّعه بعينَيْه الأرقَتَيْن إلى باب المقهى. وكان على الطاولة حيث جلس الكاتب ثلاثون ديناراً، وصورة لرجل أسود، صنعت سعادة رجل يملك عربة ذكريات، غير بعيد عن البريد المركزي، هناك، في تقاطع شارعَي ديزلي وبيجو.

الفصل الرابع

جلست أولغا أو أيّاً كان اسمها تشاهد التلفاز وقد أنستْها الأخبار المتداولة عن اختفاء الأبواب منذ خمسة أيّام موتَ أبيها الذي عرفت أنه لسبب غامض لم يُدفن في مقبرة اللامَرئيّيْن، ليكون أوّل فرد من هذه الزمرة يُدفن خارجها.

كانت تقضي وقتها كله في النوم ومشاهدة نشرات الأخبار على أكثر من قناة، والتي كانت تعرض ما يحدث في البلد من فوضى، بسبب اختفاء الأبواب من البنايات كلها بما فيها قصر الحكومة الواقع على بُعْد أمتار قليلة من حَيّها. حتّى إنها لاحظت، ربمّا كغيرها، كيف أن الرجل الوسيم صاحب الشَّعْر المرتّب والأسنان البيضاء الذي عادة ما يظهر في نشرة أخبار الثامنة، صار شاحب اللون، غير آبه بأن يرسم كما اعتاد على وجهه ابتسامته العريضة الممتدّة من الأذن إلى الأذن. كان يقرأ بيانات الحكومة ببرودة، وكأنه فقد الإيمان الذي كان يزرعه عادة، بصدق كاذب محترف، في مستمعيه. كان واضحاً أنه لم يعد الشخص نفسه، كما لم تعد ياقة قميصه الأبيض بالنظافة نفسها التي كثيراً ما حسده عليها الثلج.

كانت الأخبار كلها مقتضبة تدور حول ما يحدث من اضطراب يعرفه البلد. فرّ المساجين من سجونهم، ولم تعد الشرطة قادرة على القبض على أحد، فلم يعد ثمّة من مكان يسمح باعتقال الموقوفين، ولا محاكم بمقدورها محاكمتهم، بعد أن وجد القضاة أنفسهم بلا عمل، وهم يقفون

عند حقيقة أنه لا مجال لتنفيذ أحكامهم بحبس المشاغبين، فلم يبقَ أيّ باب في أيّ سجن من سجون المدينة على كثرتها، يمكن إغلاقه عليهم.

وبدأ رجال الشرطة منذ اليوم الثاني يفرّون من الخدمة، بعضهم خوفاً على حياتهم، وبعضهم الآخر من أجل البقاء طوال الوقت مع عائلاتهم رغبة في حراستهم من عصابات ظهرت منذ اليوم الأوّل، تمتهن اقتحام المنازل التي لا أبواب فيها. وكان هذا حال منازل المدينة الدولة جميعها، حتّى ثكنات العسكر لم تسلم، فنُهبت كما نُهبت البنوك والمحلات التّجاريّة والمباني الحكومية التي لم يصمد منها إلا قصر الحكومة، بحيث تمكّنت بعض الآلهة الجديدة من الدرجة الثانية، والتي لم تكن تملك من السطوة والجبروت ما يسمح لها بالفرار خارج البلد من التّحصّن فيه.

في البداية حاولت تعويض الأبواب المختفية بأبواب أخرى، ولكنها استسلمت للأمر الواقع وهي تشاهد أن الأبواب تختفي مجدّداً بمجرّد وضعها في الأماكن المخصّصة لها. ثمّ، في محاولة أخرى، فكّرت الآلهة في سدّ المداخل بأيّ شيء، أو بناء جدران تسدّ بها الفراغات التي كانت تُسمّى أبواباً، ولكنها تراجعت في الأخير بعد إدراكها أن من شأن هذا سجنها بلا أيّ أمل في الفرار إذا ساءت الأمور أكثر، والأخطر أنه كان حلاً مؤقّتاً غير حكيم، قد يعزلها عن العالم وعن سادتها من الآلهة الفارّة إلى خارج البلد. وكانت هذه قد حملت رئيسها "الزّومبيّ" معها، وركبت كل ما وجدتْهُ من بواخر ومراكب، بعد أن تأكّد لها استحالة السفر جوّاً، فلم يكن بمقدور أيّ طائرة التحليق بغير أبواب.

تحصّنت "آلهة الدرجة الثانية" بقصر الحكومة، مقنعة بعض رجال الشرطة والعسكر، ممّنْ لا أهل لهم، بالوقوف صفوف متراصّة في مداخل القصر ومنافذه، بحيث شكّلوا أبواب بشرية، لم يستطع الخَوَاء ابتلاعها.

كانت تلك فكرة جمال حميدي الذي استعانت به الآلهة منذ أن ظهر لها استحالة تعويض الأبواب بأخرى. فمنذ أن شوهد على التلفاز مراراً وتكراراً مردّداً جملته الذّكيّة نفسها: "انتابني اليوم شعور غامض بحدوث الأمر"، ومدّعياً أن خبرته كبوّاب أوّلاً، وكعميد للبوّابين، تجعله مؤهّلاً، ليجد حلاً لمشكل الأبواب، حُمل حملاً إلى قصر الحكومة، وهناك قدّم اقتراحه بتشكيل أبواب بشرية، تحول بين الآلهة وبين الهمج الراغبين في اقتحام عالم لا يخصّهم. كانت فكرة ساذجة لم تخطر على تلك الكائنات السّماويّة المفروض ألا يغيب عنها شيء، ولكن عذرها أنها فكرة لا يمكن أن يصل إليها إلا عقل كائن بدائي كجمال حميدي، والذي اهتدى إليها حين كان يشاهد صديقه موح بوخنونة واقفاً، محاوِلاً أن يعوّض باب مكتب العميد.

مع اليوم الخامس لاختفاء الأبواب، ظهرت ميليشيات بعدد الفصائل التي خرجت من العَدَم، فلطالما عملت الآلهة الجديدة، على شطب كلمات لم ترَ لها ضرورة في قاموس الشعب، وكان أوّلها كلمة "المعارضة"، رغم أنها أبقت على حدٍّ لبق من السياسة، سمح للشعب ولعقود كثيرة بالسباحة في مستنقع الوَهْم، مستمتِعاً بفكرة أنه كبقية شعوب العالم يمكنه أن يختار آلهته في أيّ وقت. والحقيقة أنه كان مُجبَراً على الاختيار بين سلطة لم يخترها يوماً، وبين معارضة تساند السلطة في أيّ شيء، ولكنها وهي ترى الانهيار الوشيك للآلهة اختارت ه\ه المعارضة جانب المصلحة، وصدّقت دورها في أنها بديل حتمي للسلطة المنهارة.

هكذا ظهرت فصائل من العَدَم، وظهر معها - حماية لها - ميليشيات ومقاتلون كانوا إلى وقت قريب مجرّد مواطنين بلا رأس، لا يستيقظون صباحاً إلا لينامو في الليل، معتقدين بأن تلك هي الحياة.

وكردّة فعل منطقية ومعقولة، صدر بيان من أرباب المدينة الدولة يعدّون

هؤلاء أعداء للوطن، يستحقّون الموت، فصدرت أحكام الإعدام الجماعية. وهتف منظّرو الآلهة بضرورة نقل الرعب إلى منازل هؤلاء المنشقّين. وفي المقابل رفع زعماء الفصائل شعاراً موحّداً ردّاً على خصومهم "لنجعل الترهيب مطلبنا اليوم". وهو ما حصل بسرعة لم يتصوّرها أحد، وكأن ثمّة حنيناً دفيناً للدم، لم يعد بمقدور أحد أن يضطهده لمدّة أطول.

وبين هؤلاء أولئك، ظهر أناس يدعون إلى أشياء غريبة - كانت إلى وقت قريب جدّاً شبهة خطيرة تستحقّ المحاكمة - دعوا إلى ضرورة إعادة النظر في قوانين المدينة الدولة، ورفض عقيدة أن هناك أناس بعينهم أولى بالزعامة فقط، لأنهم مَنْ قاموا بالثورة منذ عقود، وبالتالي تبنّي فكرة مجتمع غير طبقي، لا ربّ فيه ولا وريث يدّعي امتلاك الثورة. مجتمع مشكَّل من أفراد يُولَدون بحقوق، تسمح لهم بتشكيل حكومة يختارونها، يعدّ أعضاءها موظّفين لديه، بعَدِّ أن الشعب صاحب الإرادة العامّة التي تعني مجموعة من القِيَم والأخلاق المشتركة والقوانين العادلة التي تجعل الجزائري إنساناً برتبة مواطن، وأن هذه الرتبة أكثر قيمة من أيّ رتبة عسكرية أو سياسية مهما كانت. وهي الرتبة الضامنة للحقّ الطّبيعيّ في الاختلاف اللّسانيّ والعقائدي والأيديولوجي.

كان كلاماً خطيراً وإن لم يفقه فيه الناس شيئاً، ودعوة أكثر خطورة، بحيث إنه ما إن ظهرت، توقّف تناحر الفصائل فيما بينها، وتشكّلت تحالفات سرّيّة بينها وبين آلهة الدرجة الثانية المتحصّنة دائماً في قصر الحكومة. حتّى إنه ولأوّل مرّة منذ رحيلها خلف البحر، ظهرت الآلهة الفارّة مع زعيمها "الرّومبيّ" تناشد الشعب العظيم بتوخّي الحذر والتّعقّل، ليس بسبب كل ما كان يحدث من تقتيل وإرهاب وفوضى، بل بسبب ما يتمّ الدعوة إليه من دولة بقوانين جديدة، ومن أناس يحملون رتبة مواطن.

وبينما كانت أولغا تتابع تلك الأخبار الفظيعة، كان الكاتب جالساً على سريره في غرفة نومه، يفكّر في أمر لا يجدر بإنسان سَوِيّ أن يشغل به باله في مثل هذا الوقت. حتّى إنه لم ينتبه إلى أن يوماً كاملاً قد مرّ، من دون أن يسمع صوت زوجته التي لا تكفّ يوماً عن الشكوى. لم ينتبه أيضاً إلى أنه لم يرَ ابنَيْه طوال اليوم رغم وجودهما في الشّقّة. كان مستغرقاً في التفكير بأمر الزّنجيّ في الصورة التي اقتناها قبل أيّام. فقد تملّكه شعور غريب بأنه على معرفة وثيقة به، بل كان على يقين من أنه رآه في مكان ما، وأنها مسألة وقت فقط ليتذكّر. فجأة وبلا سبب واضح شعر بالاختناق. فكّر أوّلاً في الخروج إلى الشرفة، ليدخّن سيجارة، ولكنه تراجع وقرّر أن يخرج ليتمشّى قليلاً. وكان متّجهاً إلى الفراغ الذي كان قبل أيّام قليلة فقط، يُسمّى باباً، حين راودتْهُ رغبة ملحّة في الكتابة. هكذا جلس خلف مكتبه، وبدأ يكتب بلا توقّف، وكأنه يرقن نصّاً يحفظه عن ظهر قلب ...

وإذ هو كذلك، سمع صوتاً من آخر الرواق. فقام وخطا في اتّجاه الصوت حتّى بلغ المكان المفترض أن يكون باباً.

كان الصوت لرجل طويل كجذع نخلة، يبتسم بِبَلَه، وأنفاسه تكاد تنقطع.

قال بمجرّد أن رأى الكاتب:

- هل هذا منزل دليلة غندريش؟

أجاب الكاتب محرّكاً رأسه بما يفهم منه نعم، ثمّ أضاف:

- هي زوجتي.

وما كاد يقول ذلك حتّى سلّمه الرجل الشبيه بالنخلة مظروفاً عليه أكثر من سبعة وعشرين خاتماً.

قال الرجل مجدّداً:

- بحسب رئيسي، هذه رسالة كان يُفترَض أن تصل المدام قبل خمسة أعوام، ولكنّ ظروفاً معيّنة جعلتْها في كل مرّة تضيع من سُعاة البريد، ولولا أن الناس لم يعودوا مهتمّين بمراسلة بعضهم في الأيّام الأخيرة، لما انتبه إليها أحد.

ثمّ انصرف من غير أن يشعر الكاتب به.

قرأ بمجرّد أن جلس على حافّة سرير غرفة نومه على ظهر المظروف اسم زوجته وعنوان شقّته، ثمّ لاحظ أربعة طوابع بريدية، تحمل اسم فرنسا وختماً دائرياً، كتب على محيطه مرسيليا وتاريخ الإرسال، والذي كان كما قال الرجل الشبيه بالنخلة قبل خمسة أعوام.

ابتسم الكاتب بمجرّد أن أدرك أنها رسالة بعث بها إلى زوجته قبل خمس سنوات، حين كان أقلّ تشاؤماً، ولم تكن الموهبة قد فارقتْهُ بعد، فكان كلّما رغب في كتابة رواية سافر إلى أيّ مكان لينعزل بنفسه، ولا يعود منه إلا برواية كاملة، يرسلها إلى الرجل صاحب اسمه.

فتح المظروف، ليعيد قراءة ما كتب وقتئذ. لم يعد يذكر بالتحديد ما جاء في رسالته تلك، ولكنه كان على يقين أنها كانت أوّل وآخر رسالة يرسلها إلى زوجته، ليس بِعَدِّها زوجة، بل لأنها كانت قادرة في تلك الفترة على استيعاب تشظّيه على نحو منحه معنى ما، جعله رغم علمه أنها تجهل حقيقته يشعر بالغبطة حين يكتب رواية جديدة، وبرضا مؤقّت حين يهديها روايته مطبوعة، وإن كان على غلافها اسم رجل آخر.

فجأة، بمجرّد أن انتهى من قراءتها شعر بشيء يملأ قلبه وعقله معاً،

عرف مباشرة أنه استعاد نفس ما سُحب منه حين كان واقفاً أمام قبر أُمّه قبل سَنَتَيْن، ومن دون أن يشغل باله بأيّ تفكير غير مجد لمعرفة أيّ شيء يرغب أن يكتب عنه، فتح حاسوبه مجدّداً، وراح يكتب وكأنه يرقن قصّة يمليها عليه شخص ما، وكان هذا مثل ما يحدث معه كلّما هَمّ بكتابة رواية جديدة: يسمع همساً في البداية لا يفهم منه شيئاً، ومع ذلك يتملّكه سرور غريب، يجعله مصغياً، حتّى يزداد الهمس قوّة، ويُلقي إليه بجملة ما، أحياناً تكون افتتاحية لرواية، وأحياناً مجرّد فكرة تتخمّر على نحو تتحوّل فيه مع مرور الوقت إلى نواة، تتشكّل حولها رواية.

هذه المرّة، لم يكتفِ الصوت بجملة واحدة، بل راح يقرأ نصّاً كاملاً، ولم يكن على الكاتب إلا أن يدفع أصابعه إلى الكتابة بأقصى ما تستطيع من سرعة.

هكذا تمدّد الزمن، واختفى المكان، بحيث لم يعد في العالم سواه. وإذ ذاك انتشله سؤال سمح للمنطق أن يطرحه عليه: "هل يعقل أن مكاتب البريد تعمل في هذه الظروف، بحيث يهتم أحد بإيصال بريدكَ المتأخّر؟". ثمّ تذكّر شكل الرجلّ الشبيه بالنخلة، كان في السبعين من العمر وربمّا أكثر. تساءل باستغراب "كيف يستمرّ رجل في مثل هذا العمر في شغل وظيفة يُفترَض أن يكون تقاعد فيها قبل عقود؟". لكنه وجد أنه سؤال ساذج حين تذكّر ما جاء في رسالة الإله الرّومبيّ في عيد ميلاده الخامس والتسعين إلى الشباب حين خاطبهم بـ"إخوتي"، ودعاهم إلى الوقوف معه في جبهة واحدة، للوصول بالبلد إلى ضفّة آمنة "نحن الشباب علينا أن نقف صفّاً واحداً انتصاراً للوطن المفدّى".

كان سؤاله حول وصول الرسالة في مثل هذا الوقت محيِّراً، لكن الكاتب لم يهتمّ بالإجابة عليه في الحين، فقد كان سؤالاً قابلاً للتأجيل بالنسبة

إليه. كل ما شغل باله حينها أن يسارع إلى نقل ما حبل به عقله فجأة إلى كلمات، أيقن أنها تُشكّل رواية ما.

لكن السارد على عكس الكاتب شغله هذا السؤال، على نحو جعله يكتب على هامش القصّة ما يبدو أنه إجابة غير معقولة على سؤال لا يقبل أيّ تأجيل، فبينما كانت المدينة الدولة غارقة في الفوضى. كان عصام كاشكاصي يحاول جاهداً أن يجد طريقة لتأمين عيشه، فمسألة عودة النظام كانت بالنسبة إليه مآلاً بديهياً لكل ما يجري، فقد حدث أن كان شاهداً على أوضاع شبيهة، وصل فيها الدم إلى الركب، ثمّ بلا أيّ جهد قد يلاحظه أحد، تعود الحياة مجدّداً بالأيادي نفسها التي صنعت الموت.

بالطبع كان هناك دائماً كبش فداء، يختلف وصفه باختلاف ما يُخترَع كأسباب وجيهة للفوضى: المخابرات، الرجال الملتحون، جيش فاسد، رجال أعمال، معارضة عميلة، مثقّفون خَوَنَة ....

ومع كل نظام وفوضى كانت تظهر وجوه جديدة، تعد الناس بحياة أفضل، ولكنها، في النهاية، وإن بعد عقود لا تحقّق منها شيئاً، وحين يدرك أصحاب الوعود أنه لا مجال أمامهم إلا الوفاء بها، يُدخلون المدينة الدولة في حالة فوضى جديدة، ليظهر رجال آخرون، يعدون الناس بما وُعدوا به من قبل، ثمّ لا يحقّقون بدورهم شيئاً من وعودهم، فيخلقون وضعاً جديداً، يسمح لهم بتأجيل أحلام شعب مجبولة على التأجيل، وهكذا يستمرّ الناس في انتظار ما لا يأتي، بين فوضى ينتهي بنظام يطلق وعوداً، تتأجّل بسبب فوضى، يُوقِفها نظام آخر، يطلق وعوداً شبيهة، لا تتحقّق بسبب فوضى أخرى، يكبحها نظام آخر ..

لهذا السبب كان عصام كاشكاصي يعتقد أنها مسألة وقت، لتعود

الأوضاع إلى حالتها الطّبيعيّة: سادة يزدادون قوّة وثراء وشعب يزداد ضعفاً وفقراً. كانت قضية وقت فحسب، ليعود إلى صناديق القمامة التي يقتات منها، كما اعتاد منذ عقود.

بسبب يقينه هذا، فكّر أن عليه أن يستغلّ الوضع وخبرته في جمع كل ما يقدر عليه، ليضمن حياة أفضل في المرحلة القادمة.

وكان يعرف بفضل ما عاشه لحدّ اليوم أنه بمجرّد أن يستتبّ الأمر سيأتي رجال يعدون الشعب بما اعتاد على سماعه، لكن أهمّ ما سيعدونه به كما جرت العادة أنهم سيصنعون قطيعة مع النظام السابق، ليس في التّوجّهات السّياسيّة والاجتماعية فحسب، بل في الاقتصادية أيضاً، وأهمّ خطوة ستكون إلغاء العملة السابقة، واعتماد عملة جديدة، ما يعني أن تفقد العملة الحالية أيّ جدوى وكل قيمة.

لهذا السبب دون غيره، كان على عكس مَن احترفوا السطو - وقد احترفه منذ ثاني يوم لاختفاء الأبواب بمجرّد انقراض رجال الشرطة - لم يجمع شيئاً من المال، مكتفياً بما وجد من ذهب وفضّة. لعلمه أنه مهما تغيّرت العملة، فسيظلّ ما جمعه محتفظاً بقيمته. وهو ما حصل لاحقاً حين تحوّل إلى تاجر يبيع ويشتري الذهب المستعمَل المسمّى في المدينة الدولة "كاصي"، وكأن المشيئة كانت تحضره، ليصير ما أصبح عليه حين أعطتْهُ اسماً شبيهاً بحرفة، لم يفكّر يوماً أن بمقدوره احترافها.

مهما يكن، كان عصام كاشكاصي كأيّ ثري محتمل في المستقبل، يحترف السطو، في وقت لم يكن يُوصَف جرمه فيه بالجريمة، ما دام الناس حينها كانوا يفعلون ذلك فقط، لأنه كان بمقدورهم فعل أيّ شيء يُشعرهم بالانتصار على آلهتهم ولو مؤقّتاً. وفي أثناء ذلك حدث أن دخل مكتباً كان

إلى وقت قريب قبل أن تختفي الأبواب مركز تجسّس واستعلامات، يحفظ فيه رجال المخابرات أيّ شيء من شأنه أن يهدّد أمن البلد أو كل دليل يمكن استعماله لإدانة مَنْ عُدُّوا خارجين عن الطاعة، وكانت رسالة الكاتب من هذا النوع. على الأقلّ هكذا فكّر أصحاب المكتب حين صادروها ورتّبوها في ملفّ فيه ما لا يمكن تصوّره عن حياة الكاتب.

في هذا المكتب، وجد عصام كاشكاصي ملفّاً عنه أيضاً، باسمه القديم الذي ورثه عن أبيه وفيه كل ما جرى له بتفصيل، لا يمكن أن تعرفه إلا المشيئة، ومع أنه عرف بعض تلك التفاصيل إلا أنه ذُعر من أمور حدثت في حياته، ولم يكن على معرفة بها، وكان ليذعر أكثر لو تمكّن من قراءة أوراق، شُطبت فيها فقرات كاملة مع وجود ملاحظة مكرّرة بعد كل شطب "سرّيّ للغاية/ الأصل محفوظ".

في ملفّه وجد صوراً لأناس عرفهم في صباه: جيران، زملاء دراسة، أصدقاء لعب، وأخرى لأشخاص مرّوا على حياته كما يمرّ القطار على مدينة لا محطّة فيها. وهو يتصفّح ملفّه المكتوب على ظهره ملاحظة بالأحمر "يراقب إلى حين صدور أمر بغير ذلك"، تساءل بسذاجة عن جدوى أن تتمّ مراقبته وهو لا أحد.

في الحقيقة لم يكن عصام كاشكاصي كما افترض "لا أحد"، ولكن الإنسان على الرغم من ادّعائه معرفة كل شيء يخصّ حياته، يتجاهل دائماً حقيقة أن لكل فعل من أفعاله مهما بدا مُهمَلاً أثر على شخص آخر في مكان ما من هذا العالم الضّيّق رغم اتّساعه، يجهل القانون الأسمى في هذا الكون المُطْمَئنّ بقوانين بدائية، تحفظ نظامه المؤقّت خوفاً من فوضاه الدائمة، وهو قانون يقضي بأن رفرفة جناحَي طائر في أيّ مكان من العالم قد يصنع عاصفة في مكان آخر.

وفي المكتب نفسه عثر على مظروف انتبه بالصدفة إلى العنوان المكتوب على ظهره، والذي لم يكن إلا عنوان الكاتب. والحقّ أنه لم يكن على يقين إن كان المظروف للرجل في الطابق الخامس الذي كثيراً ما أشفق عليه ولم يكسر يوماً خاطره كلّما طلب منه سيجارة، أو لتلك المرأة البشعة البدينة ذات اللون الغريب في العمارة المقابلة له، والتي كثيراً ما حاول التلويح لها، من غير أن تلاحظه، وعلى خلاف ما قد يُفترَض، لم يشعر يوماً بالحزن أو الغضب حين كانت تتجاهله عمداً، فلطالما تملّكتْهُ في كل مرّة يراها مشاعر غامضة، تمنعه من كرهها كلّما لوّح إليها وتظاهرت أنه غير موجود.

بعدها لم يحتج إلا الوصول إلى أعلى سلالم ترولار ليدرك بعد أن تحقّق من العنوان أن المظروف يخصّ رجل شرفة الطابق الخامس. ولأن الكاتب لم يتمكّن يوماً من رؤية وجهه على النحو الذي يجعله يدرك بمجرّد أن ظهر أمامه أنه رجل القمامة، انطلت حيلة عصام كاشكاصي حين ادّعى أنه موظّف في مكتب البريد.

الرسالة

"حبيبتي، كما وعدتُكِ. هذه أوّل رسالة عن أوّل يوم.

لم ينتهِ بعد، ولكنني متعب من السفر. لم أنمْ ليلة أمس، كما اعتدتُ كل ليلة تسبق سفري إلى أيّ مكان. ربمّا خوفاً من تفويت رحلتي. ربمّا لأنني خشيتُ في داخلي أن تكون آخر رحلة أقوم بها. أفضّل أن أبقى ساهراً. أراقبكم في نومكم، أنتِ والأولاد.

هي طريقتي لأقول لكم وداعاً، وربمّا ليست كذلك، أرق مقيت فحسب. غادرتُ من غير أن أُوقظكِ. تعرفين أنني أكره لحظة الوداع، وتلك الجملة السخيفة التي نطبع بها قبلة الفراق: "اعتنِ بنفسكِ"، وكأننا لا نفعل ذلك كل يوم.

أكره ذلك وأكره المطارات. أكره الطوابير ونقاط التفتيش وأجهزة السكانير اللعينة وأسئلة الجمارك:

- هل تحمل شيئاً تحبّ الإبلاغ عنه؟.

- لا أحمل إلا حقيبة ظَهْر. في جيبي ألف دينار وعشرون يورو وكرت لرصيد فارغ.

أليس من الغريب أن تحدث معي الأشياء نفسها في كل رحلة؟: تنزل

الطائرة. أُشغّل هاتفي. أتحقّق من الوقت. أبقى جالساً في مكاني. أنتظر. يخرج الجميع. لا طابور. أخرج بدوري.

في كل رحلة، يقلّب الشرطي جواز سفري. يسألني الأسئلة نفسها.

- أختام كثيرة؟.

- نعم.

- تعمل في مجال يضطرّكَ للسفر؟.

لا أردّ. أبتسم. يُبحلق في وجهي. فأتساءل ببَلَه: هل يتأكّد منّي؟.

- ضعْ أصبعكَ هنا.

ينظر في شاشة حاسوبه. يتحقّق من الفيزا. يُبحلق فيّ مجدّداً. ما زلتُ أنا. لم أتغيّر. رأسي دائري. شَعْري قصير. ابتسامتي كتكشيرة طفل.

- أهلاً بكَ في مرسيليا.

أبتسم. يبتسم أخيراً.

خلف البوكس أمتعتي. حقيبة بنّيّة رخيصة. هي نفسها التي أهديتنيها قبل عشرة أعوام. أجرّها كما اعتدتُ أن أفعل بحياتي. أجرّها، متحسّساً مكان علبة السجائر في جيبي. أتفحّص وجوه الناس على غير عادتي. لا أحد ينظر إليّ. لا أحد يحمل لافتة باسمي.

أُشغّل ويفي المطار. تقتحم رسالة هاتفي. (أهلاً صديقي، ستستقبلكَ "فاني"، وقد تتأخّر قليلاً، سعيدة بوجودكَ في مرسيليا، "جيرالدين").

أخرج من المطار. أُشعل سيجارة. أنفت دخانها في الهواء. كم ممتع طعم الموت.

أنتِ لا تحبّين هذا الطَّعْم. تكرهين رائحة سجائري، رائحتي أنا. أعتذر ولكنني أنا. لم تدركي أبداً أنها طريقتي لإخفاء رائحة الجثّة التي أستعملها كجسد. هي طريقة غبية لميت يرغب في إيهامكِ بأنه حَيّ.

أعتذر لأنني أحبّ ما لا تحبّين. فلطالما أصررتُ على حياتي السابقة، قبل أن تُولَدي في قلبي، وقبل أن ينزل ولدانا من السماء، مَلَكَيْن بلا أجنحة.

أفف، أرأيتِ؟ أنا أيضاً أشتكي من شكواكِ منّي. فكلانا يشتكي من حياة سابقة.

أشعر، يا حبيبتي، بشخص آخر في حلقي. وحده الاختناق يُشعرني بالحياة كما يشعر القطّ بها حين نخنقه. أحيانا لا تظهر الحياة إلا حين نضرب الموت بقبضَتَيْنا، فنراها بلا أقنعة وهي تمنح الغَيْرة شكلاً آخر، كثيراً ما نعتقد أنه الحياة.

كلانا يشتكي، مصرّاً على قَدَره الأخير، ولعلّ هذا كل ما يحدث بيننا ويصنعنا، أنا وأنتِ، وهذه الحياة التي تخنقنا وتصيغنا كهدية لعاشق نحبّه، ولكننا نتحقّق من كل شيء يصدر عنه.

أقرأ رسالة جيرالدين مجدّداً. آه، رَقْم هاتف.

- ألو فاني؟ أنا ...

فرنسيّتي رديئة. لساني متحجّر.

- أين أنتِ؟.

- أمامكَ مباشرة.

أرفع رأسي. ابتسامة عريضة. يد تلوّح. خدّان وقبلتان.

- أعتذر، في مرسيليا نحبّ التقبيل.

- أوّل اعتذار لا أقبله في حياتي.

تضحك فاني. أضحك أيضاً.

مرسيليا تشبه العاصمة. تقول فاني.

أجيبها: تشبه وهران أيضاً، ولكنهما مختلفتان.

أضيف داخل رأسي أنني جئتُ من مكان أضاع جغرافيته. لا يقع في أيّ مكان. كل ما يوجد بحر نقطعه على قوارب لا تصلح للبحر. أنا من هُناك، حيث لا يحلم الناس إلا بهُنا. أبكي في داخلي، مبتسماً في الظاهر. أضحك أيضاً. ضحكتي تشبه نباح كلب متشرّد.

أضحك، متعمّداً ألا أنظر إلى شيء محدّد. لا أحبّ أن أرتبط بأيّ شيء لا يريدني. هنا لا شيء يريدنا، رغم أننا نريده .. هناك أيضاً لا شيء يرغب فينا إلا الموت.

أسأل فاني مجدّداً، فأنا لا أُحسن إلا الأسئلة. أختبئ خلفها فقط، لأن فرنسيّتي رديئة، ولأنني أكره الصمت.

- هل تقيمين في المدينة؟.

- نعم، تجيب فاني، "نوواي".. هل تعرفها؟.

يظهر في رأسي وجه الرجل الوسيم في نشرة الأخبار. ذقن حليق. قصّة شَعْر حديثة. ربطة عنق زرقاء، قميص أبيض كالثلج. أسنان كأسنان الله.

- نعم، أجيب فاني، أعتقد أنه قبل يومَيْن انهارت عمارة أو عمارَتَيْن. هل مات أحد فيهما؟

أعود إلى أسئلتي. أدّعي أنني مهتمّ. عيناي كمصباح محترق لا تعكسان شيئاً.

- مأساة ..

- مأساة؟ ..

- أمر مفجع.

- مفجع؟.

- سنتظاهر اليوم تنديداً بشلل البلدية وتقاعسها؟ تضيف فاني .

تتظاهرون؟.. تُندّدون؟. يا إلهي، هل تحتفظون هنا في قواميسكم بمثل هذه الكلمات؟ هناك، لا أصوات في حناجرنا. يمكن أن نصرخ. يمكن أن ننبح أيضاً، ولكنْ، بلا صوت؟.

للحظة يسود الصمت. نتوقّف عن الكلام. نستمرّ في الابتسام لبعضنا، كإشارة بدائية عن وجودنا معاً. تتوقّف السّيّارة أيضاً.

على الرصيف "جيرالدين". تبتسم هي الأخرى. ما هذا البلد الذين يبتسم فيه الجميع؟

أبتسم لها. قبلتان ودرس سريع عن جدوى المفاتيح: هذا نفتح به باب العمارة، أمّا الصغير، فلصندوق الرسائل، والثالث المسنّن لباب الشّقّة.

هل تعرفين، يا حبيبتي، أن في الشّقّة مكتباً وطابعة؟ هل تصدّقين أنهم على عكسي أنا يصدّقون أنني كاتب؟ حتّى أنتِ، وأنا أكتب لكِ، لم تصدّقي. كلانا يعرف رغم كُتُبي السبعة، أنني لم أكتب شيئاً. كل ما حدث أنني مجرّد رجل تعثّر ذات يوم بالكلمات. لستُ كاتباً. أنا مجرّد نص غير محدّد، مجهول يناقض العبقرية. يخطّئ العقل، فقط ليعيد برمجة الكثيرين. أشبه النبيذ، ولكنني بلا طَعْم. بلا رائحة.

ترحل فاني.

الرحيل مسألة مؤقّتة ودائمة، كالحياة، كالموت، كالنساء، كالكتابة والحبّ.

تعرّفني جيرالدين على الشّقّة: صالة وغرفة نوم ومطبخ وحمّام.

- لا أشعر بالغربة هنا. أقول لجيرالدين.

تبتسم. أشعر بأنها لا تصدّقني. بالطبع. الغربة إدمان، كلّما غرقنا فيه لا يظهر لنا. هل يظهر اللون الأبيض في لوحة بيضاء؟.

فجأة وقبل أن تستيقظ الحَيْرة في داخلي، أقترح على جيرالدين أن أصنع لها قهوة.

- هل تدخّنين؟.

- نعم.

- دعيني أدعوكِ على سجائري.

- جزائرية؟

- نعم.

كذبة أخرى. لا نصنع شيئاً هناك، حتّى الموت الممتع لا نُحسن صناعته.

تأخذ جيرالدين نَفَساً عميقاً. تبتسم وهي تنفث الدخان في الهواء.

- طعمها جميل.

لا أصدّقها. كان القرف يطلّ من عينَيْها يلوّح لي.

- مرسيليا تشبه وهران. تشبه العاصمة. تشبه عنّابة. تشبه ...

أقول أيّ شيء يملأ الفراغ. لا يبدو لي أنني قادر على تشكيل جمل أخرى. يتعثّر لساني. يتحجّر عقلي. أفكّر بالعربية، لأنطق فرنسية، تخرج من فمي جملاً ممسوخة بلا هوية. في الحقيقة، أحبّ ركاكتي وجملي العرجاء. تشبهني. تشبه كل شيء هناك. أنا لا أكذب. كل ما في الأمر، أنني لا أقول الصدق.من العَدَم، تظهر روكسانا. اسم جميل. وجه أجمل.

قبل أشهر، كان كل مَن التقيتُ مجرّد أسماء في إيميلي: فاني اسم. جيرالدين اسم. روكسانا اسم. أسماء فحسب. وحده باسكال حمل صوتاً. اليوم ونحن نتناول الغداء بـ "الطاولات الكبيرة" أصبحوا أشخاصاً حقيقيّيْن. حزنتُ لذلك. على الأقلّ، كانوا يحملون في رأسي أكثر من صورة. تماماً كما كنتِ أنتِ، وكل حلم كان لي هناك.

يبدو أننا صرنا أكثر ارتباطاً. أكتب إليكِ. أستمتع بفعل ذلك. منذ متى لم نستمتع معاً؟. منذ متى لم أخاطبكِ؟.

أدرك تماماً أنني أكلّمكِ كل يوم. نتحدّث. ننام على السرير نفسه. نمارس الحبّ يوماً بيوم. نخرج للعشاء أحياناً. أعرف ذلك، ولكنني لم أشعر أنني خاطبتُكِ يوماً أو استمتعتُ بالوجود معكِ. الآن أتلهّف لأكتب إليكِ.

أشعر أننا صرنا أكثر قرباً ممّا كنّا عليه، وليس بيننا أيّ بحر.

في فمي طعم نبيذ قديم. لا أذكر شيئاً حدث يبرّر هذا الطعم. كل ما يخطر على بالي أنه كانت ظلمة. سماء بلا نجوم. ثمّ حانة في ثاني زقاق على يمين عمارتي في اتّجاه "الكنبيير".

لا تعرفين "الكنبيير"؟. لا بأس، حتّى أنا لم أكن أعرف هذا المكان.

واعدني صديق هناك. تعرفينه، الاسم الذي على غلاف روايتي. أحبّ أن أقول الرجل صاحب اسمي، ولكنني أُشفق عليه أن يكون كذلك.

- نلتقي في "الكنبيير".

- اتّفقنا، نلتقي هناك.

- خمسمائة متر فقط عن الشّقّة، في اتّجاه "الريفورمي".

- حاضر، نلتقي هناك.

- لن تضيع، هناك كنيسة قديمة ومحطّة ميترو وساحة بتماثيل. هناك نافورة ماء، ومقهى ذات طراز باريسي.

- طيّب، لن أضيع.

ولكنني تهتُ نصف ساعة قبل أن أهتدي إلى المكان.

الحانة في الزقاق الثاني كما أخبرتُكَ. ثاني زقاق على اليمين. الزقاق الأوّل يشبه الثاني. ولكن الحانة في ثاني زقاق.

- مساء الخير.

بادرتُ النادلة. امرأة أربعينية. تشبه قصّة غامضة لغارسيا مركيز. مترهّلة كرواية عربية لكاتب كبير. أذكر أنفها الغليظ، ويَدَيْها السّمينَتَيْن، وصدرها المستهتر بالصِّغر. بيضاء كقلب مؤمن عرف الله قبل يومَيْن فحسب.

لا أذكر أوّل كأس نبيذ. لا أذكر الثاني، و.. لا الرابع أيضاً.. رأسي منتفخة. رائحتي كريهة. مزيج رائع من التبغ والنبيذ. ربمّا .. لستُ متأكّداً، ربمّا أيضاً رائحة امرأة ما.

أضحك وأنا أراني محتفظاً بملابسي. أتحسّس جيب جاكيتي الدّاخليّ. جواز سفري. هاتفي. لا نقود. لم أفقد أيّ شيء مهمّ، إلا سويعات قليلة من ذاكرتي وخمسين يورو اقترضتُها أمس. تدركين جيّداً أن لا أحد سواكِ في قلبي. ربمّا خنتُكِ أمس. لستُ متأكّداً. ربمّا أيضاً أحببتُ مَنْ خنتُكِ معها لربع ساعة. ولكنني لن أحبّ أحداً غيركِ العمر كله.

لا أريد الخروج من الشّقّة اليوم. لا حاجة لي إلى الخروج. عندي ثلاثون علبة سجائر. علبتان من البنّ. جبن وخبز شعير. لم أشترِ شيئاً غير سجائر حملتُها معي من الوطن. لا أحتاج إلى شيء آخر، يكفيني فقط أن أفتح حاسوبي وأكتب.

ينتابني شعور غامض الآن. أشعر بحرّيّة أكبر. لا تفهميني خطأ. أحبّكِ. أحبّ ولدَيْنا. ولكنني سعيد أنكم على بُعد فيزا وتذكرة. لو كان بيننا البحر فقط لما كنتُ سعيداً إلى هذا الحدّ. أنا على يقين أنكِ لن تفاجئيني بمجيئكِ. لن تقتحمي خلوتي. لن تمنعيني من الكتابة في كل وقت. تحتاجين لحرماني من سعادتي إلى أكثر من تذكرة تدفعين ثمنها من رصيدي البنكي. لن يفيدكِ جواز سفركِ الأخضر للوصول إلى هنا، كما لم يفدني أنا أيضاً.

صحيح، أنني في سنوات براءتي، كنتُ أصدّق كل ما يقول الرجل

الوسيم في نشرة الأخبار. تذكرينه: رجل بشَعْر ممشّط وذقن حليق، ربطة عنق عريضة بأسنان بيضاء. لم يكن واحداً، ولكنهم متشابهون. قصّة الشّعر نفسها. الأسنان نفسها. ربطة العنق ذاتها. كان يظهر في كل مرّة ليملأ رؤوسنا الكبيرة بأشياء كثيرة. كنّا نسخر منه. نضحك من شكله الرّسميّ المرتّب. ولكننا في آخر المطاف نصدّقه. في صوته مخدّر يجعلنا نهلوس بكلماته، لنصدّقها في النهاية: نحن شعب عظيم .. تاريخ أعظم .. ثورة كبيرة .. مليون ونصف مليون شهيد .. على الأقلّ صدّقت هُرَاءه طويلاً، حتّى تمثّلتُني رجلاً خارقاً ومواطناً فوق العادة. أعتقد أنه كان إدماناً جماعياً. لم أكن وحدي. وحده الرجل الوسيم في نشرة الأخبار مَنْ كان يعرف الحقيقة.

قبل شهرَيْن، وأنا في طابور الانتظار لإيداع ملفّ الفيزا، تساءلتُ عمّا كنتُ أفعل في الطابور. لماذا أقف منتظراً، آملاً في رضاهم، لأتمكّن من السفر. أمام بوكس شرطي المطار سألتُني السؤال نفسه. ومع ذلك انتظرتُ هناك لأكون هنا، بجوازي الأخضر المنبوذ.

أرأيتِ، يا حبيبتي؟ تحتاجين لأكثر من تذكرة لتمنعيني من الكتابة، من أن أكون أنا. أحبّكِ، ولكنني أحبّ نفسي أكثر. ربّما أحبّ العالم كله أيضاً، إلى حدّ أنني أشفق عليه من وجودي فيه.

أخذني صاحب اسمي في جولة. سرنا أربع ساعات، لم نتوقّف فيهما إلا حين لاحظ أنني بدأتُ أعرج. لا أحد بمقدوره منعي من السير والتّقدّم نحو وجهتي. حتّى أنتِ لم تتمكّني من إيقافي حين بدأتُ المسير، وحدها الدوالي تمكّنتْ من ذلك.

كذبة أخرى. هم أيضاً تمكّنوا من منعي.

عرّفني على رجل لم أعد أذكر اسمه. ربّما لم أهتمّ بالتّعرّف عليه.

التقينا به مصادفة بالميناء القديم. نحيل بلحية خفيفة شقراء. أبيض البشرة بعينَيْن زرقاوَيْن. كان يدخّن سيجارة ملفوفة. هنا السجائر غالية جدّاً، بعلبي الثلاثين أشعر أنني ثري جدّاً.

أخبره صاحب اسمي أنني روائي، وأنني صاحب الرواية التي كتبها. بدا الرجل سعيداً بهذه الصدفة. ابتسمتُ له من غير أن أفتح فمي. مطّطتُ شَفَتَيّ فحسب، كإشارة على رضا لم أشعر به حقيقة. ثمّة شيء يمنعني من الرضا الكامل. أردتُ في لحظة من الصدق أن أخبره كما اعتدتُ إخباره دائماً أنني لستُ كاتباً، مجرّد رجل تعثّر بالكلمات. أردتُ ذلك فعلاً، ولكنني وهو يسألني عن مكان إقامتي قلتُ ترولار.

- ترولار؟

- حَيّ شعبي بالعاصمة.

- جميل.

ابتسمتُ، متسائلاً في داخلي عمّا يقصد بقوله جميل.

يُشعرني الأشخاص اللبقون بالضجر. أميل إلى التّوحّش، إلى البذاءة.

هنا، كل مَنْ ألتقي به يُبادرني بالتّحيّة. صباح الخير. سيّدي. تفضّلْ. في خدمتكَ. كُلُّ مَنْ هنا لبقٌ إلى حدِّ القرف.

بدأتُ أشعر بالغربة. ليس لأنني في وطن ليس وطني، بل لأن ملامحي بدأت تختفي. أخبرتُ صاحب اسمي بذلك، وبحاجتي إلى مكان في مرسيليا يذكّرني بالوطن. أحتاج إلى عمارات متّسخة. وجوه متعبة غير بشوشة. صناديق قمامة ممتلئة. شوارع قذرة. أحتاج إلى أرصفة تركن عليها السّيّارات.

رجال شرطة مخيفين. سلطة تكذب كما تأكل الخبز. [illegible]
متسوّلين. بذاءة. حكومة مرتشية. برلمان سخيف. شوارع بلا [illegible]
بلا قاعات سينما، بلا مسارح. رجال لا يحلمون، لا يعيشون، يبقون فقط على قيد الحياة. أحتاج إلى أيّ شيء يشبه الخدعة العظيمة التي أسمّيها وطن.

أُدركُ، حبيبتي، أنني لا أقول لكِ شيئاً مهماً. تأخذني الحماسة أحياناً لأكتب لكِ خطاباً غارقاً في الغضب. أنا غاضب جدّاً، حبيبتي، فقط لأنني أنا. يجدر بكِ أنتِ أيضاً أن تغضبي لأنكِ أنتِ. كُلّ مَنْ هم هناك عليهم أن يغضبوا فقط لأنهم من هناك.

مع ذلك لم تفوّتي شيئاً. لم يحدث معي أمر، قد أستمتع بإخباركِ إيّاه.

بعد جولتي عدتُ إلى الشّقّة. لم أحتج لاستشارة الـ"جي بي أس" لأعرف موقعها. بدأتُ أعتاد على مرسيليا. هندستها منطقية، لا يحتاج الواحد فيها إلى خريطة. كل ما يحيّرني هنا، هو هذا الكَمّ الهائل من الأجناس. مليون لغة. مليون جنسية. خليط هائل من الأعراق.

هل تذكرين أوّل موعد لنا حين سألتِني إن كنتُ ميزابياً؟ فرحتِ كثيراً حين أجبتُكِ لا. أنا أيضاً سعدتُ حين علمتُ أنكِ لستِ شاوية.

كان سؤالكِ عنصرياً، وسؤالي لكِ عن عِرْقِكِ أكثر عنصرية. لم نصف الأمر وقتها بهذه الطريقة. بدا الأمر عادياً لكلَيْنا، حتّى حين اشترطتُ عليكِ ألا تُعلّمي أطفالنا الأمازيغية أو حين اشترطتِ للاقتران بي أن أُصلّي.

كلانا ابتلع عنصرية الآخر على أنها لا شيء. ربمّا لأننا نشأنا على هذا. نحن عاصميان في النهاية. وُلدنا ونشأنا في العاصمة. في المدينة التي تسكنها الآلهة الجديدة؟.. نحن الأكثر فطنة وباقي العالم كوافا .. كعب.

أعرف أنكِ تضحكين الآن، فأنا مَنْ شرح لكِ أوّل مرّة معنى أن تكون كافيا وكعبا: الكافي مفرد كوافا والكعبة مفرد كعب.

أذكر كيف أدهشتْكِ معرفتي بالكلمات. لم تُدركي وقتها، ولا أحسبكِ تدركين الآن أنني كائن ورقي، لا وجود لي بغير الكلمات. وُلدتُ لأكون كاتباً. ولأني كذلك تعلّمتُ أن أعيش. وحتّى أحيا تعلّمتُ الحبّ. ربّما من أجل هذا أستمرّ في الكتابة، بحثاً عن حالة حبّ تدوم للأبد. بعيداً عن الأشخاص، عن الأشياء. أبحث عن حبّ يشبه الأزل. لا بداية ولا نهاية له. لا يحكمه أيّ منطق، ولا يمكن صبّه في أيّ شكل.

كنتُ ساذجة كأيّ عاصميّ يفتخر بعاصمته. تماماً مثلي، قبل أن أقرّر مغادرتها إلى الريف، حيث لا عمارات تذكّرني بطفولتي، وحيث يوجد أناس جُبلتُ على احتقارهم فقط لأنهم وُلدوا خارج العاصمة.

اكتشفتُ وأنا بينهم، أنني لا أحبّهم ولا أكرههم. لا أحترمهم ولا أحتقرهم. كل ما في الأمر، أنني أكره حقيقة أنني لم أُولَد مثلهم خارج العاصمة. على الأقلّ، كان بمقدوري أن أحلم مثلما يفعلون.

- يعني أنه رجل بليد.

- مَنْ تقصد؟

- الكافي.

أضحك. يستفزّكِ ضحكي. تضيق عيناكِ. يتغيّر لونهما. يحمرّ وجهكِ الأبيض كأنه شعلة نار.

- لا تغضبي.

كنتُ أهمس لكِ بذلك، وأزرعكِ في حضني، محاوِلاً طمأنتك.

- حتّى أنا اعتقدتُ ذلك ذات يوم. المشكل ليس فيما نعرف، بل فيما نعتقد أننا نعرف. الكافي كلمة فرنسية .. لا لا، لهجة فرنسية. تعرفين .. الأرغو. لغة الشارع التي ليست في القواميس. تعني عكس ما نفهم عادة. الكافي تصف كل رجل يكون أميناً وطيّباً. لسبب خارج عن اللغة، أصبحت كلمة تعني الرجل الساذج البليد.

أعتذر، حبيبتي. لستِ ساذجة في النهاية. لم تكوني كذلك قطّ. ففي عالم لا نُبْل فيه، تصبح الطِّيبة والنُّبْل والأمانة كلمات لا تعني شيئاً غير البلادة. ألا يضرّ النور دوماً عينَيْن وُلدتا في الظلمة؟

ممتع أن أُحدّثكِ عن ذكريات تحفظينها. عن تفاصيل كهذه. أنا لا أذكر إلا التفاصيل الصغيرة. لا أذكر متى التقينا أو في أيّ عام تزوّجنا. لا أذكر متى وُلد ولدانا، ولا حتّى كيف اخترنا اسمَيْهما. لكنني أذكر بالتفصيل لون صبغ أظافر أصابعكِ في أوّل لقاء. شَعْرك الأشقر المبتلّ. أذكر أوّل حفّاظة غيّرتها لكل واحد من وَلَدَيْنا، أوّل حمّى، أوّل ابتسامة.

وحدها التفاصيل تجعلني كائناً أفضل. تماماً كما تجعلني منكمشاً في ذاتي. ألاحظ أشياء لا يهتمّ بها أحد، كتلك المرّة التي قرّرتُ فيها وبلا سبب محدّد أن أتوقّف عند عربة لبيع الذكريات.

مهما يكن، لا أفعل هنا شيئاً مهماً، ومع ذلك فهو أهمّ ممّا اعتدتُ أن أفعله هناك. على الأقلّ أملك وقتاً هنا للقراءة. في يومَيْن أنهيتُ كتاباً كاملاً. قرأتُ "أولادهم ونحن" لنيكولا ماتيو .. كتاب جميل بحقّ. أعتقد أنني عثرتُ أخيراً على كاتب فرنسي لا يثرثر كثيراً. رواية عن الحياة، عن اليومي. أحببتُ ذلك فعلاً.

بمجرّد أن عدتُ إلى الشّقّة، دخّنتُ خمس سجائر مع فنجان قهوة. شعرتُ بعدها بقليل من الجوع، ولكنني أجّلتُ الأكل. المنحة التي وعدوني بها لم تصل بعد. ليس معي إلا سبعة يوروات، أدّخرها ليوم غد، ولتناول فنجان قهوة في أيّ مقهى.

أخبرني صاحب اسمي عن مكان يشبه الوطن. سجّلتُ اسمه. نوواي. كانت فاني قد أخبرتْني أنها تقيم فيه. حَيّ شعبي كما وصفتْهُ. مكان للمهمّشين كما قرأتُ عنه في النت.

فكّرتُ في استكشافه اليوم، ولكنْ، ليس قبل أن أتجوّل في المدينة.

قبل سفري وضعتُ خطّة دقيقة لزيارة مرسيليا، بمتاحفها وقلاعها وحدائقها وكل صالات العرض فيها. سجّلتُ موقع كل مكان يُفترَض أن أزوره. كانت خطّة رائعة، أجهضها تأخّر المنحة. لكنْ، كما تعرفينني لا أكتفي بخطّة واحدة. أملك في جعبتي طُرُقاً أخرى لتمضية الوقت والاستمتاع، من دون أن أهدر فلساً واحداً.

لديّ خريطة أخرى لمرسيليا. رسمتُها بنفسي.

في سنوات مراهقتي كنّا نسمّيها مدينة الدعارة والعرب. ربّما كان وصفاً ظالماً في عمومه، ولكنه صادق بنحو ما. شخصياً، لا أعرف عِرْقاً بشرياً يفكّر بما بين ساقَيْه مثلما يفعل العرب. حتّى أنا أفعل ذلك أحياناً، بدليل فضولي للتّجوّل في شوارع العاهرات تلك.

في خريطتي أربعة عشر موقعاً ورديا يقايض الحبّ بثمن ما. ليس للعرب فيها من حظٍّ إلا في "الكنبيير". بقية المناطق مقسّمة بين الأفارقة والإسبان وعاهرات أوروبا الوسطى والمِثْليّيْن من كل جنس.

هل تعرفين، حبيبتي، أن أرخص عاهرات مرسيليا من العرب؟. غريب أن تبقى قيمتنا هي نفسها حتّى في العهر.

اكتفيتُ بالكنبيير وشارع "بوا دي لافارين" ونهجي "الحرّيّة" و"سان بازل" و"أليي غمبيطا". كان لديّ موعد مسبّق مع صديق في ساحة الصدقة. أكلنا معاً وشربنا نبيذاً إيطالياً لم أعد أذكر اسمه. يظهر الناس هنا حماسة كلّما أخبرتُهم أنكَ كاتب. على عكس الناس هناك، يشعرونكَ أنكَ تهدر وقتكَ. لا فرق بالنسبة إليّ.

بعد انصراف صديقي، فضّلتُ البقاء في شارع الصدقة. مكان مذهل ببناياته الكنسية. لا عمارات. هواء أنقى. تتوزّع فيها المطاعم والمقاهي. أحسب أنه مكان سياحي أو يُراد له أن يكون كذلك.

أحببتُ المكان فعلاً، قطعة من الريف تجاهلتْها المدينة. يمكنني أن أعيش هنا بلا أدنى شعور بالغربة. تعرفين، حبيبتي، أنني أحبّ الريف، وما كنتُ لأتركه لولا إصرارك اللعين لنكون وسط العاصمة، في شقّة من غرفَتَيْن.

في جولتي الصّباحيّة ساومتُ عاهرة أو عاهرَتَيْن. كان الأمر ممتعاً بنحو ما إن ألعب دور الزبون.

هل أغراني الأمر؟. لا أدري. ربّما مع تلك الإفريقية النحيلة، صغيرة الحجم بنهدَي طفلة. لم أفعل شيئاً معها. أنا مفلس كما أخبرتُكِ. أخذتُ رَقْم هاتفها. نصف الساعة بعشرين يورو، والساعة بثلاثين، والليلة بثلاثمائة. أخبرتُها أنني بهذا المبلغ يمكنني مضاجعة ستّ عاهرات في الجزائر طوال الليل. سخرتْ منّي، وعلّقتْ بأن لدينا أرخص عاهرات العالم.

لا أدري، حبيبتي، لماذا غلا الدم في عروقي، وشتمتُها؟!

أترين، حبيبتي؟! لم أتخلّص بعد من عقدة الرجل الأفضل. أخذتْني النخوة حتّى على عاهراتنا.

بعدها جلستُ في مقهى لطيف يحمل اسم "بيير الكبير". لا أعرف مَنْ يكون، ولا أعتقد أنني سأبحث. هنا، يُسمّون الشوارع والأماكن والمقاهي بأسماء رموزهم. كثير من الأماكن تحمل أسماء قدّيسين وشعراء وكتّاب. أحيانا أسماء رسّامين وممثّلين. أعتقد أنها طريقتهم للتّشبّث بهويتهم، حتّى تلك التي لا رغبة لهم فيها.

هناك في ساحة الريفورمي تمثال ضخم مسيّج، عليه لافتة مكتوب عليها: "تخليداً لذكرى الضحايا المدنيّيْن والعسكريّيْن الذين قُتلوا في حرب الجزائر. إلى الـ ٦٠٠٠٠ مفقود أوروبي والـ ١٥٠٠٠٠حركي مات من أجل فرنسا". لا أدري السبب الذي جعلني أكره هذا التمثال بمجرّد أن وقعت عيناي على تلك اللافتة. ولا السبب الذي جعلني لاحقاً أحبّ النظر إليه، وقراءة اللافتة بلا ملل.

نحن لا ننظر إلى رموزنا بهذا الشكل. لا نحبّ مَنْ ماتوا من أجل الوطن، ولا مَنْ بقوا على قيد الحياة. أسماء شوارعنا لا هوية لها. ليس لدينا مقاه، كل ما هناك أماكن نشرب القهوة فيها. أتساءل دوماً، متى نفتح كتاب الأمس، من غير أن نخشى خروج الموت من صفحات ماضينا؟ متى نفعل ذلك، حبيبتي، من دون أن نُنصِّب أنفسنا رقباء على ما يمكن قراءته وما لا يمكن؟

يوم أخبرني ابننا أن لديه هذا العام مقرّر التاريخ حزنتُ عليه. لم أخبركِ. لم أخبره أيضاً. حزنتُ أن يهدر طفولته على دراسة تاريخ، سيدرك لاحقاً أنه مُزوّر. حكايات بطولات أسطورية. غسيل مخّ بدائي لا ذكاء فيه.

هل تعتقدين، حبيبتي، بأن القَدَر ما جعلنا نعيش فقراء في هذا الوطن الغني؟ هل تعتقدين بأن الله ساديّ إلى الحدّ الذي يجعل منّا شعباً قاصراً هذا الوقت كله؟ أنا لم أعتقد ذلك يوماً. يقيني، أننا نحن مَن اختار فقرنا وبقاءنا قصّراً، لمّا أضفينا القداسة على تاريخنا. نحن مَنْ خلق آلهتنا الجديدة، حين توهّمنا أن ثورتنا لم تُنجب إلا قدّيسين وأنبياء، أهديناهم هذا الوطن بثرائه وخيراته وشعبه.

أليس من الغريب، حبيبتي، أنه حتّى بعد هذا الوقت كله من الاستقلال، ما زلنا نهدر وقتنا في معرفة مَن هو المجاهد ومَن الحركي ومَن الشهيد؟..

يبدو أنني في مزاج سيّئ لأكتب أيّ شيء. ولكن الصدق لا يظهر إلا حين يكون المرء سكراناً أو سيّئ المزاج. أعترف أنني كلاهما الآن: سكران وغاضب ..

ملاحظة أولى: مرّ يومان من غير أن يهاتفني نور الدين. أخبريه بأن بمقدور أبيه أن يعرف كل ما يفعل حتّى وهو متواجد في مرسيليا. أخبريه بذلك فقط. ما زال طفلاً، وسيصدّق حتماً كل ما تتفوّهين به.

ملاحظة ثانية: على فكرة، حتّى نحن نصدّق كل ما تقوله لنا الحكومة ... هل يعني ذلك أننا أطفال؟

ليون بورجوا/ مرسيليا

الفصل الخامس

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

على عكس قلب الكاتب الذي امتلأ سعادة بنصّه الجديد، وقد أيقن أن الموهبة عاودتْهُ أخيراً، كان قلب جمال حميدي يخفق باضطراب، وهو جالس في انتظار أن يُؤذَن له بالدخول. لم يكن خوفاً ما شعر به لحظتها، بقدر ما كان مزيجاً غير متجانس من الرهبة والرعب والقلق والخشية. ومع ذلك كان ثمّة شعور لذيذ بأمل غامض جدّاً يسري في قلبه، جعله مستعدّاً للبقاء، حيث كان منتظراً منذ ساعَتَيْن، ليسمح له بالدخول.

ففي منتصف هذا اليوم، وهو اليوم سابع يوم منذ اختفاء الأبواب، جاءه زعيم آلهة الدرجة الثانية لاهثاً ومرعوباً، يُخبره بصوت يشبه الهمس بأن الرجل الضئيل يطلبه في مكتبه.

لم يضف شيئاً. كل ما قاله: "الرجل الضئيل ينتظركَ في مكتبه الساعة الرابعة زوالاً". ولكنه حين قال ذلك، خُيّل إلى جمال حميدي بأن في صوت هذا الإله شيئاً من الذعر لم يستطع إخفاءه على الرغم من مهابته التي لا يشكّ أحد فيها. والحقّ أنه كان مذعوراً على نحو بعث ذعراً أعظم في قلب جمال حميدي، استمرّ معه إلى هذه اللحظة.

كان مكتب الرجل الضئيل يقع في الطابق التّحتيّ لقصر الحكومة الذي لم يكن فيه أيّ مكتب آخر. ولسبب ما، لم يزوّد هذا الطابق بالكهرباء ولا بأيّ نوع من الخطوط الهاتفية، حتّى إن جمال حميدي لاحظ بمجرّد

وصوله بأن الأصوات التي كان قصر الحكومة يعجّ بها بسبب المحتجّين خارجاً لم تكن تقتحم جدران هذا المكان. كانت ظلمة يحتضنها سكون لم يقطعه إلا صوت تُصدره آلة كاتبة في آخر الرواق، أين كان يتواجد مكتب الرجل الضئيل.

ولأن التّلصّص كان طبعاً متمكّناً من جمال حميدي، فقد لاحظ بمجرّد وصوله إلى هناك بأن الطابق غير محروس تماماً. كانت الأبواب في غير مكانها الطّبيعيّ كحال كل البلد، وعلى عكس ما فعلتْهُ الآلهة، لم يكن هناك أيّ صفوف بشرية تعمل عمل الأبواب، لا في مدخل الطابق، ولا عند المكتب الذي ينتظر بجواره. وكأن صاحب الطابق لم يكن مَعنياً بما يجري.

بعد ثلاث ساعات من الانتظار، خرجت امرأة تطلب من جمال حميدي أن يدخل. كانت مُسنّة، سمراء نحيلة بوجه طويل، شوّهتْهُ التجاعيد، تضع نظّارة سميكة بإطار أسود، متوسّطة الطول، ترتدي تنّورة رمادية طويلة، تصل إلى ربلَتَيْها، وقميصاً حريرياً من لون السماء بأزرار وكُمَّيْن طويلَيْن.

حين طلبت منه الدخول، لم تتفوّه بشيء. كل ما فعلتْ أنها أشارتْ إليه بيدها بما يفهم منه بأن الرجل في الداخل مستعدّ لاستقباله الآن. ذلك كله من دون أن تبتسم، ومن غير أن يُفهَم من ملامح وجهها أيّ شيء.

حرّك جمال حميدي كرسيّه إلى الخلف، ثمّ إلى الأمام، ودخل المكتب، في حين عادت المرأة المُسنّة، لتجلس خلف مكتبها الخشبي، من غير أن تنظر إلى جهته أو تتابعه بنظراتها، وبمجرّد أن وضعت مؤخّرتها على الكرسي شرعت في الرَّقْن على آلتها الكاتبة من طراز أوليفيتي، مختلسة النظر إلى رزمة أوراق مكتوبة بخطّ اليد.

وعلى عكس ما توقّع، لم يكن مكتب الرجل الضئيل بتلك الفخامة التي

افترضها في رجل يُرعب اسمه الأسياد. كان مجرّد غرفة داخلية، لا يمكن ولوجها إلا عبر مكتب السكريتاريا، وهو مكتب صغير وبلا أثاث تقريباً، تتكدّس عليه أكوام من الملفّات الضخمة، بل وتكوّمت على الأرض أيضاً. وعلى الجدران عُلِّقت صور بالأبيض والأسود لرجال عرف جمال حميدي بعضهم، وهم أرباب حكموا المدينة الدولة في زمن ما، لكنها كانت صوراً غريبة، أُخذت لهم وهم في أسوأ أحوالهم، ممدّدين على أسِرَّتهم، وكأنهم في انتظار الموت.

كانت تلك أوّل مرّة يشاهد فيها جمال حميدي صورة لأحدهم، ولا تتملّكه الرهبة. فقد كانوا على أسِرّتهم في صورهم تلك، يبعثون على الشفقة أكثر من أيّ شيء آخر، ولربّما شعر ببعض التّشفّي الذي يُفترَض أن يشعر به أيّ مواطن من مواطني المدينة الدولة، كترجمة صادقة لسعادتهم بموت هؤلاء الذين حالوا بينهم وبين صفة الإنسان. ولكن هذا، كان ما يُفترَض فحسب، لأن الواقع فرض عليه - على غرار مواطني المدينة الدولة - نوعاً آخر من المشاعر يشبه الامتنان، ولكنه أكثر قوّة. وهي مشاعر تتملّك الرهينة تجاه نوعَيْن من البشر، لا علاقة لهما ببعض: المخلّص والسّجّان. وكان السادة الجدد بلا شكّ مخلّصين وأرباب سجون يُحسنون أداء الدَّورَيْن معاً.

خلف المكتب كان يجلس رجل ضئيل يدخّن سجائر كريهة بلا أعقاب. بدا لجمال حميدي أنه في الثمانين مع أنه في الواقع تجاوز هذا العمر بكثير. وكان بجوار مكتبه عكّاز خشبي بمقبض أبيض رخامي اللون، ومكتبة صغيرة برفوف دقيقة سوداء، رُتّبت عليها كُتُب باللغة الفرنسية، وصناديق ملفّات ضخمة.

ما إن رأى الرجل الضئيل جمال حميدي حتّى وقف مرحِّباً وكأنه صديق قديم. اعتذر أوّلا عن تأخّره في استقباله، وعن حالة المكتب غير المُرتّب،

ثمّ راح يتحدّث في أمور الحياة العادية، تلك التي قد تُسمّى في غير هذا المكان ثرثرة. ذلك كله وجمال حميدي يلعب دور المهتمّ بكل ما كان يتفوّه به الرجل الضئيل. وفجأة وبلا مقدّمات سأله بصوته المبحوح الذي يبدو أن سنيناً من التدخين والويسكي تحالفا في تأليفه:

- هل تعرف سبب دعوتكَ إلى هنا؟

شعر جمال حميدي بجفاف في حلقه، وبخَدَر مفاجئ في لسانه وهو يحاول أن يردّ عليه، ومع أنه عثر في مخّه الصغير على بعض الكلمات التي تصلح لتُكوّن جملة لبقة، تليق كردّ، وجد صعوبة في إخراجها من فمه، مكتفياً بابتسامة بلهاء، وبتحريك رأسه الكبير من اليمين إلى اليسار، ليقول في النهاية"لا".

- بالطبع لا تعرف.

قال الضئيل قبل أن يضيف:

- أنتَ من النوع الذي أفضّل. أقصد أنكَ مكتفٍ بحياة تمارسها كما يجدر بأيّ مواطن صالح. تعيش حياتكَ بالقَدْر المسموح به فحسب. لا تسأل شيئاً، ولكنكَ تأخذ كل ما يُعطى لكَ. بصراحة، أعجبتْني جرأتكَ حين وقفتَ أمام الكاميرا، لتُوهِمَ الناس أنكَ تملك حلولاً لمشاكلهم. لم تقل ذلك صراحة، ولكنكَ قلتَ ما يجب قوله ليُفهَم أنكَ تملك خلاصاً من نوع ما. هل تعرف كيف نسمّي شخصاً كهذا؟

- لا ..

أجاب جميل حميدي من غير أن يدرك أنه لم يفعل إلا مقاطعة الرجل الضئيل الذي استمرّ في الحديث.

- نُسمّيه سياسياً. كل رجل يملك قدرة الإيهام بإمكانه أن يكون [illegible]

ثمّ شرح له متى لا تكون هذه القدرة كافية ليمارس الرجل [illegible] فالمشعوذون والسَّحَرَة والبهلوانات ورجال الدين كلهم أرباب وهم [illegible] غير قادرين على توظيف مواهبهم في السياسة، بسبب أنهم لا يؤمنون بما يختلقون من أوهام، ولا يُصدّقون حيلهم، فهم يُصرّون على مَحو الخطّ الفاصل بين الكذب وعدم قول الحقيقة، وهو أمر لا يفعله السّياسيّ.

أضاف الرجل الضئيل:

- أنتَ تملك ما يلزم في داخلكَ من إيمان يجعلكَ تُصدِّق ما تتفوّه به. كل ما تحتاجه الآن، لتكون سياسياً بارعاً، رجلاً مثلي، يُعلِّمكَ سُبُل عدم قول الحقيقة، من غير أن تكون كذّاباً، يجعلكَ تظهر للناس على غير ما أنتَ عليه، من دون أن تُوصَف بالمنافق. وحين أفعل ذلك، وسأفعل بلا شكّ، ستمشي رغم شللكَ نحو ما سيجعلكَ مثل هؤلاء.

قال ذلك رافعاً يده، مشيراً إلى الصور المعلّقة على الجدار.

وبحركة أخرى من يده أشار إليه بالانصراف، مضيفاً من غير أن ينظر إليه:

- فكّرْ فيما قلتُهُ لكَ اليوم، وغداً أراكَ في مثل هذا الوقت. فكما ترى، يا صديقي، تكاد الشمس أن تغيب، وعلى عكس ما قد تتصوّر، لم أعتد العمل ليلاً ولا في الظلام ولا تحت أضواء لم يخلقها الله.

كان لقاء مهيباً وغريباً أيضاً. على الأقلّ هكذا وصفه جمال حميدي في رأسه، بمجرّد أن خرج من مكتب الرجل الضئيل في آخر الرواق، وهو يتساءل بصدق عمّا يجب أن يفكّر فيه قبل موعده معه يوم غد، والذي حلّ بسرعة لم يتخيّلها من دون أن يُتعب مخّه البدائي بأيّ نوع من التفكير أو التّأمّل،

اكتفى بالإصغاء مع بعض التركيز الذي تتطلّبه الطاعة العمياء. ومع الموعد الثاني والثالث والرابع والذي يليه ثمّ الذي يليه، تأكّد بما ليس فيه أدنى شكّ، أن التفكير الذي قصده الرجل الضئيل لم يكن إلا استحضار وحفظ كل ما كان يعلّمه إيّاه ليصبح سياسياً، يستحقّ هذا الوصف.

استمرّ الأمر أسبوعاً كاملاً، خصّص فيه الرجل الضئيل ثلاث ساعات من مساء كل يوم لتعليم جمال حميدي كل ما يتعلّق بالسياسة. وكان أهمّ ما علّمه إيّاه أن الأمور ليست دائماً كما تبدو عليه، وأن الواقع مهما بدا مغرياً، ليس إلا وَهْماً ترسمه أصابع رجال، فهموا بأن الشعوب غير قادرة على مواجهة الواقع الحقيقي، لذلك فمن الأفضل لها أن تعيش في واقع موازٍ، يُوهِمها بأنها جزء من الواقع، يجعلها تتوهّم أن بمقدورها تقرير مصيرها واختيار حكّامها والأديان التي تعتقد أن الإيمان فقط ما قادها إليها.

شرح له أن الواقع الموازي الذي يرسمه هؤلاء قوي وجاذب جدّاً، بحيث يحدث أحياناً أن يصدِّقه الرجال الذين رسموه، وهو ما حدث لأكثر هؤلاء رسوخاً في فنّ الخلق، ما يبرّر صحوات الضمير التي قد تتملّك بعضهم رغبة في كشف الوَهْم العظيم الذي ابتكروه، متناسين حقيقة أنه مجرّد رحمة بشعوب ستضطرّ للانتحار إذا ما واجهت واقعاً مختلفاً عن واقعها الموازي.

كان الرجل الضئيل يحدِّث جمال حميدي في أمور بدت له في البداية مجرّد طلاسم، ولكنه ومع مرور الوقت اكتشف أن بمقدوره فَهْم بعضها، كما حدث له حين أدرك السبب الذي جعل الرجل الضئيل يُعلِّق تلك الصور على جدار مكتبه.

عملت صور الآلهة المريضة على فراش الموت على تذكيره باستمرار بأنها مجرّد كائنات ضعيفة، ابتكرها وغيره من رجال الواقع الحقيقي لا

غير. كانت تلك طريقته لئلاّ يبتلعه الواقع الموازي الذي [illegible] أصبحت عليه، ولكنها لم تكن طريقته الوحيدة للتّشبّث بالواقع [illegible] كما تصوّر جمال حميدي الذي برغم تجربته الطويلة في التّلصّص، [illegible] اللامتناهية في رؤية ما لا يمكن رؤيته، لم يلاحظ أن الرجل الضئيل كان بين كل سيجارَتَيْن يدخّنهما، يُدخِل يده في جيب جاكيته، ليتحسّس شيئاً فيه. وكان كلّما فعل ذلك يشعّ وجهه بثقة أكبر من العادة.

الرجل الضئيل

مع اختفاء الأبواب وما انجرّ عنه من فوضى، لم ينتبه أحد لوجود القطعة النّقديّة، بحيث تقاذفتْها الأقدام وعجلات السّيّارات لأيّام حتّى بلغت مدخل الطابق التّحتيّ لقصر الحكومة، وفي أثناء ذلك كله لم يلاحظها أحد، إلى أن حدث والتصقت بإحدى عجلَتَيّ كرسيّ جمال حميدي المتحرّك وهو في طريقه للقاء الرجل الضئيل أوّل مرّة.

ومع أنها التصقت بها في الساعة الثالثة وسبع وخمسين دقيقة زوالاً، إلا أن جمال حميدي لم يشعر بوجودها مباشرة، فقد احتاج الأمر لدقيقَتَيْن وستّ وثلاثين ثانية بالضبط لتقع عيناه عليها أوّل مرّة، حين اكتشف وجودها بسبب ما كان يُصدره احتكاكها بالأرض من صوت تحالف مع صوت الآلة الكاتبة الصادر من مكتب الرجل الضئيل في اغتيال سكون مرعب ضمّ الطابق التّحتيّ لقصر الحكومة.

ولأن جمال حميدي كان مشغول البال بموضوع لقائه بالرجل الضئيل، بكل ما يعنيه ذلك من فضول ورعب وخوف وخشية ومهابة، لم تطبع القطعة النّقديّة روحه كما فعلت بروح عصام كاشكاصي الذي على الرغم من تخلّيه عنها خوفاً من البوليس، رُسمت صورة الرجل المنقوش وجهه عليها في رأسه بتفاصيلها كلها، حتّى إنه كان بمقدوره أن يتذكّر تلك الرموز الغريبة المصاحبة للوجه، ويعيد كتابتها، وإن لم يكن يعرف إلى أيّ لغة تنتمي، على عكس الرجل الضئيل الذي بمجرّد أن رآها على سطح مكتبه

حتّى ارتسمت ملامح امتنان نادراً ما ترتسم على وجهه. وكان [illegible] قد نسيها هناك بسبب الارتباك الذي يُفترَض حصوله لأي [illegible] بالرجل الضئيل، وإن كان إلهاً من آلهة المدينة الدولة.

توضيحاً للأمر، فقد كان امتنان الرجل يتعلّق بقصّتَيْن مثيرتيْن ارتبطتا بالقطعة النّقديّة: الأولى كان الرجل الضئيل بطلاً فيها، أمّا القصّة الثانية، فكانت أكثر إثارة حدثت قبل ميلاد المدينة الدولة بنحو ثلاثة آلاف سنة. يحفظ رجل الطابق التّحتيّ خواطر مزعومة عنها، وكجميع ما اعتاد أن يحمله التاريخ من قصص، اختلطت قصّة القطعة النّقديّة بالأساطير والوَهْم والكذب والتزوير، ولكنْ، لا أحد عرف تفاصيلها بدقّة إلا صاحب السطور الذي لأسباب لا تعني القارئ أجّلها إلى حين، كما يجدر بأيّ سارد يحترم قرّاءه أن يفعل.

فقد حدث أنه قبل خمسين عاماً، حين كان الرجل الضئيل مجرّد إله لم يمتهن بعد فنّ خَلْق العوالم الموازية، أن كان في مكتبه في انتظار وصول رجل من شأنه أن يخلّصه من ورطة لو عرفها أنداده لاستغلّوها ضدّه.

كان مُحبَطاً، لكنه بوجهه الصارم العظميّ وبعينَيْه الحادَّتَيْن وبشاربه الكثيف كان قادراً على حجب مشاعر الضعف كلها التي تميّز في العادة أيّ إنسان. وكان الدخان المنبعث من سيجارة بلا عقب يدخّنها تمنع النظرات المتلصّصة لتشكّل مشاهدة كاملة عنه كما يُفترَض حصوله في عرف المعقول، والذي يقتضي أن تنعكس صورته على حدَقَتَيّ مَنْ يراه، فيقول جازماً حين يراه إنه رآه.

كان كائناً بكل ما يحمله الوصف من دقّة، لا تجد لها اللغة كلمات تحيط بها، يبعث على الرهبة والرعب أيضاً، بحيث كان الواحد ما إن

يدخل عليه إلا وتسري في جسده رعشة تجعله غير قادر على الوقوف، وتُشعره برغبة ملحّة في التّبوّل، ولأنه كان كذلك يجد الواقف في حضرته نفسه متلعثماً، لا تحضره الكلمات المناسبة وغير المناسبة وإن كان عالم لغة. وأحياناً بمجرّد أن ينتهي لقاؤه به، يشعر بأنه فَقَدَ جزءاً من وزنه، وهو شعور يمنحه شيئاً من السكينة المؤقّتة، لأنه، في الحقيقة، لم يفقد من وزنه شيئاً، كل ما في الأمر أن خروجه من عند الرجل الضئيل حيّاً اقتضى بالضرورة أن يتخلّى عن روحه في هذا المكتب. وهو بالضبط ما حدث لإبراهيم بافولولو بمجرّد أن خرج من عنده، يضمّ بين ذراعَيْه رضيعاً ملفوفاً في قماش أزرق، قابضاً في يده على قطعة نقدية، هي نفسها التي طبعت روح عصام كاشكاصي بمجرّد أن وقعت عيناه عليها بعد عقود.

دام اللقاء ثلاث دقائق لا غير. لم يحدث فيه أيّ حوار من شأنه أن يضطرّ إبراهيم بافولولو لفَتْح فمه ويقول أيّ شيء. كل ما كان عليه فعله هو الإصغاء لا أقلّ ولا أكثر، تماماً مثلما طلب منه زعيم اللامَرئيّيْن حين هَاتَفَهُ فجراً يأمره بالتّوجّه إلى قصر الحكومة ولقاء الرجل الضئيل.

قال له بالحرف الواحد: "الأمر محسوم، اذهبْ ونفِّذْ كلّ ما يقوله لكَ".

ومع أن إبراهيم بافولولو لم يلاحظ شيئاً بسبب ارتباكه أو لندرة المرّات التي حظي بشرف مكالمة زعيم زمرته الذي في العادة لا يُحدِّث مباشرة مَنْ هم في المراتب الدنيا، وإنما يُوجّه أوامره لهم عن طريق أشراف يسمّون الموالي، إلا أن صوت الزعيم رغم ما بدا عليه من صرامة تليق به، كان يشوبه شيء قد يجرؤ الكاتب ويقول إنه الخوف.

مهما يكن، فقد خرج إبراهيم بافولولو من مكتب الرجل الضئيل مخلِّفاً روحه هناك، ولكنه على عكس كل مَنْ يدخل هذا المكتب، خرج منه

بوزن أكبر هو لرضيعة ملفوفة في قماش أزرق ولقطعة [illegible] الخالص. وكان بالرغم من تصميمه على تنفيذ كل أوامر الرجل [illegible] يفعل أيّ رجل يملك عقلاً، إلا أن القطعة النّقديّة طبعت روحه [illegible] بما فعلتْهُ بعصام كاشكاصي بعد عقود، ولكن تأثيرها كان أقوى. بحسب إنه لأوّل مرّة في المدينة الدولة يفكّر رجل ولو مجرّد تفكير في التحايل على الرجل الضئيل، وتأجيل تنفيذ بعض أوامره.

تملّكت الرجل الضئيل مع خروج إبراهيم بافولولو من مكتبه مشاعر متناقضة تماماً، فقد كان سعيداً بتخلّصه من ورطة كانت لتؤخِّر طموحاته في أن يصير ما أصبح عليه الآن، والتي من أجلها شطب سابقاً "الرجل ما" من سجلّ الوجود، كما محا كل ما له علاقة بفضيحة ابنته "أميرة"، ومع ذلك كان يشعر، في الوقت نفسه، بالحزن لتخلّيه عن قطعة نقدية، منحتْهُ لعقود طويلة طمأنينةً، عرف أنها لن تعود إليه بعد أن تخلّى عنها. كان عزاؤه وهو يفعل ذلك معرفته الأكيدة بأن بقاءه كمهندس أكبر يضطرّه في كل لحظة إلى سَدِّ مداخل الضعف الموجودة والمحتملة كلها.

لم تكن تلك غاية فحسب، بل قَدَراً أخبره به رجال في الجانب الآخر من البحر سنوات قليلة قبل أن يقرّروا العودة إلى أوطانهم بعد مائة وثلاثين عاماً قضوها أسياداً في المدينة الدولة، وهم الذين كان لهم الفضل في ابتداع النوع البشري المسمّى "إنديجان".

وقتها، كان الرجل الضئيل مجرّد رجل بلا طموح تقريباً. وكانت أحلامه مقتصرة في سخافات، ملأ بعضهم بها رأسه، وخلاصتها أن رجال الجانب الآخر من البحر مجرّد غزاة، وأن وجودهم في المدينة الدولة آيل للانتهاء، وبأن ثورة "الإنديجان" لا تهدف إلّا إلى طَرْدهم، واكتساب الحقّ الشّرعيّ في التّطوّر إلى جنس أكثر تميّزاً، يسمّى "الشعب"، وهو جنس سيعمل بمجرّد

استعادته للسلطة إلى تأسيس دولة يتساوى فيها الجميع، بحيث يختار أفراده رئيساً منهم، يخضع إلى سلطتهم كأيّ موظّف في كيان، يطلقون عليه لاحقاً اسم "الدولة". يكون الناس فيها سعداء، يحمل كل واحد منهم صفة "مواطن"، وهؤلاء سيُعيدون في حاضرهم كتابة تاريخهم بما فيه وعليه، وبفضله يرسمون ملامح روحهم المغتصبة طيلة قرون من الاستعباد، مرّة باسم الدين، ومرّة باسم اللغة، ومرّات أخرى باسم حضارات تدّعي أنّها أسمى. وفي هذا الكيان سيتشكّل الوطن بروحه، ليُكوّن أُمّة، لا تأبه بلغة مَنْ يشكّلونها، ولا بدينهم، ولا بانتماءاتهم القَبَلِيّة، لأنّ ذلك كله سيذوب في سبيل وطن أكبر من كل وطن، حتّى إنه أكبر من ملكوت السماء، يطلقون عليه اسم الجزائر.

كان الرجل الضئيل يؤمن بهذا كله، ويحمل كملايين من الإنديجان اسماً ولقباً، ويعرف على وجه اليقين اسم والدَيْه، وليس اسم أُمّه فحسب، ولكنه بعد لقائه برجال الجانب الآخر من البحر، أدرك حقيقة ما كان ليدرك بعضها لو لم يلتقِ بهم. اكتشف أن ذلك الهُرَاء كله الذي حشوا به رأسه لم يكن إلا صدى عالم موازٍ للعالم الواقعي، رسمه هؤلاء ليستمرّ بقاؤهم في المدينة الدولة، من غير أن يتواجدوا فيها بأجسادهم، كل ما احتاجوه أن يجدوا رجالاً من طينة الرجل الضئيل، يُحوِّلون بهم مجرى النهر، بحيث يَأمنون ألا يصبّ في غير أفواههم ..

هكذا وُجدت آلهة بنت معابدها على جثث أناس، آمنوا بصدق أن بمقدور النهر أن يروي كل المدينة الدولة، وحين يفعل لن تعود مجرّد مدينة، وإن تسمّت عاصمة، وإنما ستكون دولة للمُدُن كلها.

كان ذلك قبل عقود خَلَت. حتّى إن الرجل الضئيل نسيَ تفاصيل جميع ما حدث ليبلغ مرتبة المهندس الأوّل، ومع ذلك تعمّد أن يحتفظ بذكرى

قديمة يستأنس بها في وحدته، فقد كان وحيداً رغم الملايين الخاضعين له، وبالرغم من آلاف الآلهة من مرؤوسيه.

كانت تلك الذكرى مجرّد قطعة نقدية من الذهب ورثها من أبيه، بحيث صارت مع مرور الزمن كل ذكراه من حياته قبل لقائه برجال الجانب الآخر من البحر، حين كان مجرّد رجل يحمل اسماً، وليس في داخله خَوَاء.

كانت ذكرى تُشعره بسعادة رجل يملك تاريخاً، وعبئاً، لأنه كان مضطرّاً ليصير مهندساً أكبر ألا يقتل ضميره مثلما فعلت الآلهة، فبالرغم من أن القطعة النّقديّة كانت تُؤنسه في وحدته، فقد امتلكت قدرة غريبة، تظهر كلّما رآها أو تحسّسها بأصابعه، فتبعث مشاعر تفتح باباً للضعف فيه، تتسرّب منه روح، اعتقد أنه تخلّص منها، كما فعل من قبل مع كل شيء يتعلّق بها كالإيمان بكائن أسمى في السماء، وكالضمير الذي خدّره بكل ما أُتيح له من وسائل، وكالحبّ الذي لم يشعر به يوماً حتّى بعد زواجه أو حين ولدت ابنته الوحيدة أميرة. وحده وجه تلك الرضيعة الأبيض حين انعكس على حدَقَتَيْه جعله يشعر بالحبّ، بحيث ما إن تملّك قلبه، انتابه الرعب، وقرّر التّخلّي عن ذلك الكائن البريء وعن تلك القطعة النّقديّة المشؤومة في الوقت نفسه.

قال لإبراهيم بافولولو وهو يعطيه قطعة النقود : "هذه سَلِّمها لحورية حين تكبر. قلْ لها إنها لجدّها من دون أن تُخبرها شيئاً عنّي". ثمّ أمره بالانصراف، وكان ذلك أوّل وآخر لقاء جمعهما معاً.

ولكن الرجل الضئيل كان على اطّلاع بكل ما يحدث في حياة حورية، حتّى أن لا شيء حدث لها باستثناء إصابتها بالبرص لم يكن له يد فيه. ذلك كله من دون أن يَظهر إلا ثلاث مرّات لا غير: الأولى حين عبث بها كاتب

كبير، أوهمها بأنها شاعرة كبيرة، والثانية حين تزوّجت من جمال حميدي وقتما كان يعمل بوّاباً في وزارة الثقافة. والثالثة لمّا تقرّر أن يصبح زوجها عميد البوّابين رئيساً للبلد.

في الأولى، نشرت الجرائد الخبر الحزين عن وفاة الكاتب الكبير إثر أزمة قلبية مفاجئة، تعرّض لها رغم أنه كان رياضياً في الثلاثين من عمر، لم يعرف فيه ما يصلح كإغراءات معقولة للموت المفاجئ، فلم يكن المغفور له مدخّناً أو مدمن سهر وخمر، ولم يعرف مخدّراً إلّا ما ادّعى أنه تناوله اصطياداً لانتباه بنات، لا يميّزن بين رجل وذَكَر.

أمّا المرّة الثانية التي ظهر فيها الرجل الضئيل في حياة حورية، فحين أُبْلغ جمال حميدي فجأة برغبة البوّابين في تشكيل نقابة وطنية، يكون فيها رئيساً، بما يعني ذلك من وجوب انتقاله إلى شقّة مملوكة باسمه، وزيادة راتبه بعشر مرّات عمّا كان عليه. والثالثة حين قرّر الرجل الضئيل أن يصبح جمال حميدي رئيساً للبلد، وهو على يقين بأنها مسألة وقت، ويعيد حورية إلى عصمته من جديد.

ومع أنها قصّة مثيرة تستحقّ لو يسترسل الواحد في سردها، إلا أن للقطعة النّقديّة قصّة أخرى أكثر إثارة وأقلّ مدعاة للحزن والكآبة، بدأت قبل ثلاثة آلاف سنة وقتما كان العالم مختلفاً عن هذا العصر في الطبيعة والإنسان.

في هذا الزمن الغارق في القِدَم، كانت الأوطان كلمة لم تدخل القاموس بعد، ولم تكن العَمارة قد حفرت قبر الطبيعة بعد، بحيث ازداد اتّساعاً لاحقاً، كلّما زادت الهُوّة بين الإنسان المجبول على حبّ الحياة، وبين البشريّ المتوهّم أنه الحياة كلها.

إيلاغين

حتّى لا يتيه الواحد في تفاصيل مُملّة، فقد كان المكان المسمّى اليوم العاصمة أقلّ يابسة وأكثر خضره، بحيث كانت الأشجار تمتدّ من قمّة الجبال إلى سواحل البحر، ومع أنه لم يكن في العاصمة إلا جبل واحد بُني على انحداره لاحقاً ما يُعرف اليوم بـ "الأبيار" و"بن عكنون" و"بوزريعة"، فقد كان هناك بالمقابل عدد هائل من التلال، لا يهمّ منها الآن إلا تلك التي شيّد على قمّتها لاحقاً قصر الحكومة، وعلى طولها بُنيت شوارع ترولار والدوق ديكار وتيليملي. وكان البحر المتوسّط حينذاك شرهاً على غير ما هو عليه في هذا العصر، وصل مَدُّه إلى المكان المسمّى في الوقت الحاضر "أودان".

وحدث أنه لسبب لا علاقة له بالتّأمّل أن رجلاً يُدعى "إيلاغين" كان جالساً في المكان الذي سيصبح لاحقاً أوّل سلّم من سلالم ترولار السبعة، ينظر إلى البحر، لا يفكّر في شيء محدّد.

هنا، لا يجد السارد في رأسه أيّ وصف لهذا الكائن الجالس إلا أنه كان رجلاً لا غير، بسبب لحيته الكَثّة وعضلاته البارزة والشَّعْر المُطلّ بلا حياء من إبطَيْه مع أن وجود الشَّعْر في الإبطَيْن لم يخصّ الرجال دون النساء، فقد كان عصر إيلاغين غريباً، بحيث لم تُخترَع فيه آلات الحلاقة بعد، ولم تكن الثياب أيضاً تُميِّز بين ذَكَر وأنثى، إذ كان الناس وقتها يرتدون تنانير طويلة وقصيرة من دون أيّ شيء آخر تحتها ممّا يسمّى اليوم ملابس داخلية، وكان

المرء لا يكاد يُميِّز جنس مَنْ بداخل التّنّورة إلا إذا اقترب منه أو حدث أن اشتهى رجل امرأة، وظهر نتوء مفاجئ في أسفل ثوبه كوتد خيمة أُقيمت على عجل، فيُعرَف بلا أيّ شكّ أن الذي داخل الثوب رجل، فقد كان عصراً مختلفاً عن هذا العصر في الحبّ أيضاً، بحيث لم يكن شعوراً تراه في أعين العشّاق، وفي طريقة لبسهم ونوع العطور التي يضعونها، ولا حتّى في تلعثمهم وهالات الأرق في عيونهم، لفرط ما يقضون من ليال بلا نوم بسبب الشوق، بل كان شعوراً واضحاً، يزداد وضوحاً وصدقاً كلّما زاد طول الوتد، وازدادت الخيمة اتّساعاً.

وبينما كان إيلاغين ينظر إلى الأفق، خُيِّل إليه أنه يرى قارباً يحمله الموج إلى الضّفّة. وحين وقف على أصابع قَدَمَيْن، ومَدّ عنقه محاولاً معرفة وجهة القارب بالضبط، تراءى له جسد ممدّ داخله، وظهر له بأن الريح والموج يُسيِّرانه إلى صخور بحرية، تقع فيما يُعرَف اليوم بـ "بولوغين".

ومن دون سبب غير الفضول، انطلق في اتّجاه القارب بعد أن اختار أيسر الدروب إليه، فلم تكن الطُّرُق وقتها معبَّدة كما هي اليوم، ولم يكن بمقدور الواحد الوصول إلى بولوغين في ساعة من الزمن سيراً، كما أصبح متاحاً للرجل المتحضّر لاحقاً، حين ألبس التراب زفتاً وإسمنتاً وحديداً، سدَّ بها مسام الأرض، لتختنق تحقيقاً لراحته المؤقّتة.

لهذا السبب فقط، استغرق إيلاغين ستّ ساعات لبلوغ موقع القارب، وقرابة الساعة ونصف الساعة، ليجد سبيلاً آمناً بين صخور بولوغين التي علق بها الحطام، وكان القارب قد تحطّم على نحو أحاله إلى ألواح، لم يعد يجمعها شكل محدّد، ليُلقي بالجثّة التي كان يحملها بعيداً، بحيث اضطرّ إيلاغين إلى البحث عنها لساعات أخرى حتّى وجدها بنواحي شاطئ "بينام" أين حملها الموج ممتثلاً لأوامر الريح.

كانت الجثّة لرجل يرتدي ثياباً، لم ير إيلاغين مثلها من قبل. على رأسه تاج من الشوك، ويده اليسرى على صدره، أمّا يمناه، فكانت على حالها، ولكنْ، بكفٍّ مقبوضة، وكأنها تمسك بشيء. ولفرط تيبّسها، لم يتمكّن إيلاغين بالرغم ممّا منحتْهُ الطبيعة من فتحها، فاضطرّ حين أن أعيتْهُ المحاولة إلى تحطيمها بحجر، وجده بالجوار. وما إن فعل، حتّى وقعت عيناه على أجمل شيء وقعتا عليه في حياته، فقد كان أوّل رجل في هذا الجانب من البحر يرى القطعة النّقديّة التي فعلت بهما تفعل عادة بكل مَنْ يراها.

رفع إيلاغين رأسه إلى السماء كإشارة شُكر لها، وهو يُقلّب بين يَدَيْه القطعة النّقديّة، وقد تملّكتْهُ الدهشة من شكلها الدّائريّ وصورة الرجل المنقوش وجهه عليها، فقد كانت أوّل مرّة يشاهد ذقناً بلا لحية، وشارباً مشذوباً، وشَعْر رأس حليق.

ذلك كله وقد نسي جثّة الرجل المتوّج بالشوك، وراح يعدو كالمجنون في اتّجاه قريته، قابضاً بقوّة على القطعة النّقديّة حتّى لا تفلت من يده، فبقدر ما كان هذا العصر غريباً حين لم يميّز بين الناس في الأزياء، فقد كان أكثر غرابة حين لم يخطر على بال أحد أن يبتكر لهذه الأثواب جيوباً، يحتفظ فيها الناس بأشيائهم مثلما حصل بعد قرون.

وما هي إلا ساعات حتّى كانوا ثلاثة رابعهم عنزة جبلية سوداء، قدّمها إيلاغين مهراً لامرأة، حدث له بسببها ما يحدث للعشّاق في ذلك الزمن السحيق، بحيث ما إن رآها في أوّل مرّة حتّى ظهر نتوء في أسفل ثوبه، إلا أنّ نتوءه لم يكن كما اعتادت النساء رؤيته، بل أقلّ ثباتاً وأقصر مدّة، ما جعلها تشرّطت عليه لوطئها عنزة جبلية بصوف أسود، وشيئا آخر لا يخطر على بال.

كانت تلك أوّل مرّة في تاريخ هؤلاء تشترط امرأة شيئاً مقابل وطئها، كما كانت أوّل مرّة يدرك فيها الناس أن بمقدور الحبّ ألا يكون صلباً وطويلاً كما اعتادوا عليه، ولأنها كذلك فقد سمح الدهاء البشري بأن تُخترع للأمر كلمة تُعبِّر عمّا يُعطى للمرأة عند الزواج، وهو "المهر"، كما اخترع لحالة إيلاغين وصفاً، لم يحفظه التاريخ في ذاكرة الهُرَاء، ليذكره السارد الآن.

مهما يكن، فقد كانوا ثلاثة متكلّمين: إيلاغين و"خطيبته المعلّقة بالرجاء" ووالدها الذي كان في قومه ما سيصير عليه رجال الدّين في هذا الزمن من أئمّة وحاخامات وقساوسة وكَهَنَة، إلا أنه كان مختلفاً عنهم في الصِّدْق والعلْم أيضاً، فلم يحدث أن كذب أو ادّعى معرفة شيء لم يكن على علم به، فقد كان كل ما يخرج من فمه وكل ما هُمس له به أوامر من السماء لا غير.

والحقّ أنه لم يكذب قطّ، ومع ذلك لم يقل يوماً شيئاً صادقاً، كما أنه لم يدّع كذباً أن بقدوره سماع كلمات السماء، لأنه كان بالفعل يسمع أصوات في كل حين جعلتْهُ يؤمن أنه مختلف عن غيره، وقد كان كذلك بالفعل لسبب غاية في البساطة، وهو أنه في ذلك الزمن البائد لم يكن ليفهم أحد كلمة صعبة كـ "الشيزوفرينيا" وكل ما تعلّق بها من أمراض التّوهّم التي كان والد "الخطيبة المعلّقة بالرجاء" مصاباً بها، وهي أمراض جعلتْهُ يتصوّر أن هلوسات مخّه المريض ملائكة وشياطين، وأن ما يسمع من أصوات يحلبها الوَهْم من ذرع الهَوَس هي أوامر المشيئة التي لا رادَّ لها.

كان إيلاغين على يقين وهو يفتح يده أنه بمجرّد أن يفعل ويشاهد صهره المفترَض القطعة النّقديّة، سيعطيه ابنته بلا نقاش. كان واثقاً من ذلك إلى درجة أنه ما إن شارف على دخول القرية حتّى بدأ يصيح: "حصلتُ على ما لا يخطر على بال.. حصلتُ على ما لا يخطر على بال".

وهي جملة بقدر ما تبدو غريبة في معناها وركيكة في تركيبها، تبقى الأقرب إلى ما صاح به إيلاغين حينها، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها مجرّد ترجمة عن لغة بائدة، وأن السارد مهما ادّعى من علم بكل تفاصيل القصّة، يجهل تمام الجهل لغة الناس في ذلك الزمن الغارق في القِدَم، وهي لغة وإن عادت في الزمن الراهن لتصير لغة الآلهة لاحقاً، فقد كانت تشبه في سماعها ما قد يصدر عن قِطّ حين تخنقه، وكانت حروفها حين تُقرأ منفردة تشبه بعضها بعضاً، بحيث لا يمكن لأيّ سمِّيع أن يفرِّق بينها أو يميّزها عمّا يُصدره رجل تلعثم في نطق "القاف" وتوقّف عنده. ومع ذلك صمدت هذه اللغة رغم بدائيتها، لتستعين بها آلهة المدينة الدولة كل مرّة تضطرّ فيها لمخاطبة المواطنين بلا رأس، فكان هؤلاء يُصغون إليها كما يفعل عادة الأصمّ حين يتلقّى خطاباً من رجل أبكم، قُطع لسانه.

ومع كل ما يمكن أن يقال عن هذه اللغة، فقد كانت مناسبة لعصر، كان فيه الناس منشغلين بالعمل عن الكلام، ولم تكن مشاعرهم غامضة كما هي الآن، على نحو يضطرّهم إلى ابتكار كلمات لوصفها، حتّى إن قاموسها تشكَّل من مائة وثلاثة وعشرين كلمة لا غير لبساطة الحياة حينئذ، ولتساوي الناس مع اختلافهم في اللون والشكل والجنس. وهو أمر لُقِّنوه من الطبيعة رغم قسوة دروسها.

ربمّا لهذا، لم يكن الغنى والفقر كلمَتَيْن تستحضرهما عقولهم، لتنطق بها ألسنتهم، وبالتّعدّي لم يُبتَكَر لهاتَيْن الكلمَتَيْن فعل ولا فاعل ولا جمع ولا تثنية.

إلا أن الآلهة الجديدة في المدينة الدولة لم تدرك ذلك لجهلها التّامّ بالمنطق. يكفي أنها توّهمت أن بمقدورها الخلود ليصير هذا الوَهْم أكبر دليل على أن علاقتها بالعقل كعلاقة المومس بالشرف. ولهذه الأسباب

دون غيرها كان المواطنون بلا رأس كلّما أصغوا إليها تتحدّث، يُتخيَّل إليهم أنهم يسمعون مزيجاً من الأصوات كالذي يلطم الأذن كلّما نهق حمار وصهل حصان في الوقت نفسه. وبالرغم من هذا كله كانت الآلهة الجديدة، بسبب أصولها البشرية، تحفظ كلمات أخرى خارج قاموس لغة إيلاغين القديمة ككلمَتَي الغنى والفقر، ولكنها لفرط تعلُّقها بلغة الآلهة لم تجتهد لتتعلّم النحو والصرف وكل ما يجب تعلُّمه من أجل نطق سليم، فكانت إذا أرادت أن تقول كلمة "شجاع" نطقت "سجاع"، وإذا أرادت جمعاً لكلمة فقير قالت "فقاقير"، حتّى اختلطت على الناس لغتهم، واكتفوا تيسيراً للفَهْم بأمرَيْن لا ثالث لهما: إمّا أن يصمتوا، وكان هذا حال المواطنين بلا رأس، وإمّا أن يتحدّثوا لغة رجال الجهة الأخرى من البحر، وكان هذا حال الآلهة الجديدة، باستثناء الرجل الضئيل الذي كان يعرف أن بقاءه كمهندس أكبر يقتضي أن يتحدّث باللغات كلها، بما فيها لغة أوغاد المدينة الدولة.

مهما يكن، فقد حدث ما لم يتوقّعه إيلاغين حين أعطى صهره المحتمل القطعةَ النّقديّة، فبمجرّد أن رآها قام يصرخ ويضرب رأسه على الأرض، ليتخبّط مغمى عليه والزبد يخرج من فمه. كان هذا المشهد يحدث معه كلّما تقمّصتْهُ الأرواح، لتحمل إليه كلمات السماء، وفي الحقيقة كان والد الخطيبة المعلّقة بالرجاء مصاباً بنوع نادر من الصَّرَع، يجعله في هذه الحالة كلّما رأى شكلاً دائرياً، وربّما كان هذا السبب الخفي في اختياره كلّما رغب في الوطء نساء هُنّ في عُرْف اليوم قاصرات، لم ينبتْ لهنّ أثداء بعد ... ربّما كان هذا هو السبب الوحيد، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كلمة صعبة ومعقّدة وكريهة كـ "البيدوفيليا"، لم تكن قد ابتُكِرَت بعد في ذلك العصر البائد.

حين استفاق من صرعه، دعا الناس حوله، ليُخبرهم بأن السماء أوحت

إليه بأن القطعة من نقود الآلهة. ثمّ بعد أن قام بما يجب من طقوس حركية وصوتية، تطلّبها دوره الدّينيّ المفترَض، سأل إيلاغين عن مصدرها، وحين أخبره تظاهر بالحزن، ثمّ صمت لخمس دقائق بتوقيت هذا العصر، قبل أن يأمر الناس بإحضار جثّة الملك المتوَّج بالشوك.

كان صوته وهو يأمرهم بذلك خافتاً إلى درجة أنهم توجّسوا خشية ممّا سيقوله لاحقاً، لكنه لم يضفْ شيئاً برّر مخاوفهم تلك. كل ما قاله إن السماء كرَّمتْهم بأن أرسلت إليهم أوّل وعاء تقمّصتْهُ في الأرض، والذي نُقش وجهه على القطعة النّقديّة، وأنه حين تجيء ساعة وصفها بكلام مبهم مَحشو بكلمات غير موجودة في لغتهم، ستنفخ السماء روحها في جثّة الملك المتوّج بالشوك، ليحكم الأرض كما حكمت روحُه السماءَ.

وهكذا جيء بالجثّة، ليكتشف والد "الخطيبة المعلّقة بالرجاء" بأن يد المتوّج بالشوك مقطوعة ومهشّمة. حينها أدرك فداحة تسرُّعه في شرح هلوساته لمّا أخبر الناس بأن الجثّة وعاء لإله سيُبعث بعد حين، فقد كان رغم أمراضه العقلية جميعها يعرف أنهم وإن تقبّلوا فكرة بعث ميت ليكون حاكماً عليهم، فلن يقبلوا أبداً ملكاً معوّقاً بيد واحدة، يضطرّ في كل مرّة رغب فيها بارتداء ملابسه أو نزعها على الاستعانة بسواه.

وإذ أدرك ذلك، نظر في وجه إيلاغين، ثمّ في وجه ابنته قبل أن يتقدّم نحوهما ويضمّهما إليه باكياً.

قال بعد أن تراجع إلى الخلف مخاطباً ابنته: "ما أشقاكِ في حياتك، يا ابنتي!"، وأمرها بالانصراف قبل أن يمسك بيد إيلاغين مقبِّلاً ظهر كفِّه وهو يردّد بصوت قوي: " ما أسعدكَ بموتكَ، يا إيلاغين!". وبلا مقدّمات، طعنه وضمّه إليه حتّى فارق إيلاغين الحياة.

كانت ميتة غريبة ومفاجئة، خلّصت الخطيبة المعلّقة بالرجاء من زيجة بائسة بلا جنس، وأنجت إيلاغين من حياة شبيهة بالموت، والأهمّ أنها أنقذت صهره المحتمل من ورطة كانت لتُفقده منزلته الرفيعة كصوت لله في الأرض، لمّا شرح للناس أن السماء اختارت إيلاغين، ليكون وعاءها الجديد حين تنفخ روحها في جثّته بعد حين.

هكذا أُلبست الجثّة ملابس الملك المبتورة يده، ووُضع على رأسه تاج من الشوك، تطوّعت خطيبته السابقة لصنعه. وفي بيت والدها، جُعلت الجثّة على سرير من الخشب بعد أن وُضعت القطعة النّقديّة في يد إيلاغين اليمنى، وأُفرغت جثّته من الدم ومن كل ما قد يتسبّب في إتلافها من أمعاء وأحشاء. وحين تمّ الأمر، أمر والد الخطيبة المعلّقة بالرجاء أن يُبنى للجثّة بيت من الطين، لا منفذ للهواء فيه، ويُكتب عليه اسم إيلاغين، ويعاد رسم الوجه المنقوش على قطعة النقوش وما حوله من رموز. وهو ما فعلوه، على أمل أن تُكرمهم السماء لمّا تحين ساعة بعث الجثّة.

لكن الساعة لم تأتِ، وامتدّت قرناً، ثمّ قرناً آخر، ثمّ قروناً، تبدّلت فيها حياة الناس على نحو مقرف، جعل الإنسان أكثر إدراكاً ببشريته، بكل ما قد يعنيه ذلك من نرجسية وتسلّط، سمحا له بالتّشبّث بالأرض، للابتعاد قدر الممكن عن السماء. وكان في ذلك كله، يشطب تاريخه، ويكتب عوضاً عنه ما اعتقد أنه سيمنحه السكينة أو على الأقلّ ما يجعله قادراً على خَلْق عالم أفضل من العالم الذي يعيش فيه.

وبين الشطب والكتابة، نسي الناس قصّة إيلاغين كما حدثت فعلاً، وتحوّل البيت الذي وُضعت فيه جثّته في البداية إلى مكان يقصده الفضوليون لمعرفة إن تحرّكت الجثّة أو لا، وبعد زمن أصبح ملاذاً للمقهورين، يشتكون فيه للميت ما يصيبهم في الحياة. وحفاظاً عليه من النهب، طيّنوا

بيت الجثّة، وزادوه دعائم وجدراناً، وحوّطوه بأكثر من سور، بحيث لم يعد يُعرَف على وجه التحديد مكان الجثّة في ذلك البناء، ولكن الناس استمرّوا في زيارة إيلاغين للدعاء، ثمّ لتقديم القرابين، وكانوا مع مرور الوقت يزيدون في البناء، ويزيّنونه بكل ما سمح به عصرهم، حتّى صار "مقام إيلاغين" بناء ضخماً، شاع في الناس أن عمالقة عاشوا في زمن غابر بنوه للعبادة امتثالاً لأوامر السماء.

وهكذا ظهر رجال يشبهون والد "الخطيبة المعلّقة بالرجاء" يدْعون إلى اتّباع هذه الأوامر التي لم يفهم أحد لماذا كانت تختلف من رجل إلى آخر في الطقوس، والتي بعد قرون اختلفت في الغاية وفي اسم الجالس على عرشه في السماء، وما هي إلا قرون أخرى حتّى تحوّل مرقد إيلاغين إلى وجهة سياحية، يتسلّى فيها السّيّاح، ويحجّ إليها المؤمنون على اختلاف عقائدهم بين مؤمن يعتقد بأن الله يسكن في ذلك البناء الضخم وآخر يسفّه هذا الاعتقاد على أساس أنه مرقد وَليّ صالح، يشفع بجسده المتحلّل خطايا المؤمنين بإله موجود في كل مكان، ولكنه مصرّ على ألا يستجيب لدعواتهم إلا في ذلك المكان. وبين هؤلاء وهؤلاء كان هناك رجال يؤمنون بكل شيء لا يؤمنون به حقّاً، ما دام يدرّ عليهم ما يجب من أرباح، ففي النهاية حتّى الإيمان بلا شيء هو إيمان بحدّ ذاته.

ولعلّ الأمر استمرّ على هذا الحال قرناً أو نصف قرن، وقد نسي الناس أمر القطعة النّقديّة، حتّى حدث مرّة في ليلة خريفية حارّة أن اهتزّت الأرض فجأة، وتهدّم مزار إيلاغين.

كانت هزّة رهيبة، بلغ ارتدادها دولاً مجاورة، وارتفع الموج ليلتها خمسة وعشرين متراً، أغرق قمّة التّلّ الذي عليه بُني المزار، وبعد ستّ ساعات حين عاد الموج لينحسر مجدّداً، حمل معه ما تبقّى من جثّة إيلاغين في

صندوقها الخشبي. وكانت رغم مرور قرون عليها، حافظت على ما يحافظ عليه التحنيط في مكان خال من الهواء. وما هي إلا أيّام وعثر عليها فتى على الجانب الآخر من البحر. وحدث معه ما حدث لإيلاغين مع الفوارق التي تتطلّبها القصص المقتبسة عن بعض، بحيث بُني مقام تحوّل إلى مزار، ثمّ إلى محجّ، وبسببه خرجت عقائد، لم تكن لتظهر لولاه.

ثمّ ضرب الأرض زلزال لم يُشهَد له مثيل، وارتفع الموج أيضاً على نحو أغرق مُدُناً، وخلق أخرى. وأبحرت القطعة النّقديّة في كفّ جثّة محنّطة، أُلبست أجمل لباس ذلك الزمن، ورست لمرّة ثالثة على ضفّة جديدة، وهكذا استمرّ الأمر حتّى اختفت القطعة النّقديّة من كتاب الأساطير، إلى أن عثر عليها مصادفة مع بداية هذا القرن رجل من الإنديجان، ورّثها لابنه الذي لم يكن إلا الرجل الضئيل. ولولا الكثير من الحظّ والقليل من الصدف، لضاعت كما ضاعت قصّتها من كُتُب التاريخ، وانمحى ذِكْرها كما حدث لاسم إيلاغين الذي وإن صمد قروناً بفضل قلوب المؤمنين الأوائل، تلاشى كلّما تقدّم الزمن في اتّجاه عصر المدينة الدولة، بحيث نسي الناس في البداية قصّته، وابتدعوا عوضاً عنها قصصاً، حوّلتْهُ من مجرّد رجل يبحث عن الحبّ إلى وعاء اختارتْهُ السماء، لتبعث فيه، ثمّ إلى وَليّ صالح، يتبرّكون به تحوّل ببركة الوَهْم إلى نبيّ لم يفهم البشرُ رسالتَهُ، لينتهي إلى إله التزم بالموت من أجل حياة البشر.

الفصل السادس

بعيداً عن التاريخ غير الرّسميّ للقطعة النّقديّة، وعلى بُعد ثلاثة آلاف سنة في اتّجاه عصر الأرباب الجدد، كانت الفوضى قد منحت اسماً جديداً للمدينة الدولة هو الجحيم. ومع ذلك كان هناك دائماً أمل في ظهور الأبواب مجدّداً، وعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل أيّام. وكان باعث هذا الأمل، صرخة هائلة أطلقتْها أولغا من شرفتها في الليلة التاسعة بالضبط منذ اختفاء الأبواب، وهي تشاهد من مكانها ما لم تتصوّر حدوثه أبداً على الجانب المقابل لشقّتها، وهو ما لم يستشرفه حتّى أكثر الناس تحليلاً لواقع هذا العالم الذي صار بلا أبواب، ممّنْ حفظت أسماءهم ووجوههم لكثرة ظهورهم على التلفاز، ونشرات أخبار لم تدع أحداً إلا واستضافتْهُ.

وكان بين هؤلاء لُغويون ورجال دين وعلماء سياسة واجتماع واقتصاديون وأناس لا علاقة لهم بأيٍّ من هذه المجالات، ولكنْ، كان لهم رأي في ما يحدث، حتّى إنه كان بمقدورهم مناقشة أيّ موضوع بيقين جاهل متحاذق.

ظهر لأولغا وهي تتابع عبر الشاشة ما يجري من نقاش، بأن اختفاء الأبواب ليس مسألة أمن فحسب، بل تعدّت إلى مسائل أخرى، لم تفكّر بها، وما كانت لتخطر على بالها قطّ، فحتّى اللغة مسَّتْها الفوضى كما قال ذلك الرجل الذي ظهر على التلفاز، عارضاً قاموساً لغوياً جديداً، شطب منه كلمات كالباب والمنفذ والمخرج، وأفعال كالدخول والولوج والخروج، وكل ما تعلّق بالباب من أفعال وكلمات.

وقال تبريراً لنظريته إن الأبواب هي الوسيلة الوحيدة للفصل بين العالم الدّاخليّ والخارجي، فلا بدّ إذا اختفت أن يصبح الداخل خارجاً والخارج داخلاً، بحيث ينصهر العالمان، ويصبحان واحداً. وهو أمر من شأنه أن يجعلنا نطرح أكثر من سؤال يتعلّق بجدوى السّرّ الذي عادة ما تحفظه الأبواب، وأعطى مثالاً بما حدث من فضائح ما كانت لتنكشف لو لم تختفِ الأبواب، على غرار ما نشرتْهُ الصحف من صور غريبة لرجال سياسة محترمين في أوضاع جنسية غريبة، ولرجال دين صُوّروا بملابس داخلية للنساء، كانوا إلى وقت قريب يُكفِّرون المِثْلِيّيْن، ويدعون إلى هدر دمائهم.

وذكّر عالم اللغة ببيان أصدرتْهُ مجموعة من العاهرات، يطالبنَ فيه بإعادة الاعتبار لهنّ ولمهنتهنّ، على اعتبار أنه مع اختفاء الأبواب انمحى الخطّ الفاصل بين العُهْر والشرف، إذا أُخذ بعين الاعتبار التعريف البدائي الرابط بين الشرف والعذرية، خاصّة بعدما أكّد أكثر من طبيب في شهادات مكتوبة وإثر معاينة أكثر من عشرة آلاف امرأة عذراء، أنه وتزامناً مع اختفاء الأبواب اختفت أغشيّة بكاراتهنّ، وهو أمر بديهي في النهاية، على اعتبار أن كل شيء يفصل بين الداخل والخارج اختفى أيضاً.

ظهر لأولغا وهي تستمع لهذا اللغوي أنها تعيش على مشارف عالم مختلف عن الذي عاشت فيه لعقود. عالم تختفي فيه كلمات، وتفقد أخرى معناها. سيكون بلا شكّ عالماً بلا أسرار، لا يمكن لأحد فيه أن يظهر على عكس ما هو عليه، بلا نفاق. لن يكون بمقدور أحد أن يدّعي أنه يملك عقاراً أو بيتاً، ما دامت الأبواب التي تفصل أملاك الناس ستختفي. أخيراً ستعدل السماء بين الآلهة والمواطنين بلا رأس، بحيث لن يُعاقَبوا على نهبهم وسرقاتهم. لن يكون هناك سجن ولا سجّان ..

ومع أن نظرية عالم اللغة بدت معقولة بالنسبة إلى أولغا، إلّا إنه سرعان

ما ظهر رجال دين يكفّرون الرجل، بحجّة أن ما قاله هرطقة خطيرة، تظهر نتائجها حين تطبّق نظريته على الكُتُب المقدّسة التي لا تخلو نصوصها من كلمات لها علاقة بالباب، ومن أفعال لا يمكن شرحها إلا بتلك الكلمات. والحقّ، كيف يمكن أن نتصوّر سماء بلا أبواب، وجنّة أو جحيماً بلا منافذ؟ ثمّ ما معنى أن يتساوى العُهر بالشرف؟ كان الأمر بالنسبة إليهم مساساً بالعقيدة بحدّ ذاتها، إذ كيف يفعلون إذا قبلوا شطب كلمة خروج من قواميسهم أن يكفّروا أحداً، وهو أمر لا يحدث إلا إذا "خرج" عن تعاليم الله. ثمّ ما العمل بتلك الآيات والإصحاحات كلها التي تحمل كلمات وأحكاماً تتعلّق بالمنافقين واللصوص؟

كان هؤلاء وغيرهم بعد مرور تسعة أيّام كاملة قد تأقلموا مع واقع، صار فيه العالم بلا أبواب، ولأن الإنسان كائن قابل للتّكيّف، لا سيّما إذا زرعت فيه القابلية لحدوث أيّ شيء مثل مواطني المدينة الدولة، فقد ساد شعور بأن الأمور ستبقى على ما هي عليه، وليس أمام الناس إلا أن يتكيّفوا مع عالم، لا أبواب فيه، بكل ما يعني ذلك من فوضى وجرائم وعدم أمان. وهو عالم بقدر ما بدا مألوفاً لدى مواطني الألفية الثالثة ممّنْ لا رأس لديهم، بقدر ما كان غريباً بالنسبة إلى الآلهة التي تمكّنت من عبور البحر، إلى درجة أنها بعد مرور هذا الوقت كله، تملّكها اليأس أخيراً، وأعلنت في آخر بيان لها قرأه الرجل الوسيم في نشرة الأخبار، أن الإله الزّومبيّ فارق الحياة، ولم يعد مجدياً بقاؤها في سُدّة الحكم لمدّة أطول.

في الحقيقة، كان الرجل الضئيل وراء كل ما يحدث في أيّ مسألة تتعلّق بالحكم، وكان هو ما دفع بالفارّين وراء البحر إلى الاستقالة، بعد أن تيقّن أن المرحلة القادمة ستختلف عمّا سبق، بحيث يحتاج الشعب إلى رجل يشعر أنه منه، وكان جمال حميدي هذا الرجل بلا شكّ، وقد عمل

المهندس الأكبر لتحضيره لهذه المهمّة الجلل، وما هي إلا أيّام ويأمره بأن يكون رئيساً على المدينة الدولة.

وبقدر ما يبدو الأمر محتملاً ألّا يُنفِّذ رجل الأوامر، وإن صدرت من السماء، فلم يكن وارداً أبداً ألّا يُنفِّذ الناس أوامر رجل ضئيل، شاع بين مرؤوسيه أنه متواجد في كل مكان، وأن بمقدوره معرفة كل شيء.

وكان هذا هُرَاء، اعتادت الخشية أن تهمس لهم به في آذانهم، فقد كان الخوف ممّا قد يفعل الرجل الضئيل في خصومه وأعدائه أكثر ترهيباً، ممّا بمقدوره أن يفعل في الواقع. ولعلّ الأساطير التي كتبها بنفسه عنه بما تقتضيه قصص الرعب - بكل ما فيها من غموض ضروري يليق برجل خطير - ما حفظ أمنه من أن يخطو المرء خصماً كان أو حليفاً أيّ خطوة في اتّجاهه، ويكشف النقاب عن حقيقة، لو قُدِّر لها أن تظهر، لسخر الجُبنُ من الشجاعة، ولأُعطي للخوف مرادفٌ آخر، هو الحماقة.

لكنْ، لحسن حظّه أو لسوء حظّ الجميع، لا أحد تجرّأ على خطو تلك الخطوة، ولا امتلك أيّ شخص حظيَ بشرف لقائه أن يطرح عليه أيّ سؤال ممّا كان يختلج في صدور مرؤوسيه من بشر وآلهة: "ما اسمكَ؟، مَنْ أنتَ؟. ما هو عملكَ في الدولة؟".

وحدها سكرتيرته المُسنّة كانت تعرف حقيقته، لسبب بديهيّ هو أنّها ابنته. تلك الفتاة الساذجة نفسها التي كادت ذات يوم بسبب تهيُّج هرموناتها غير المستقرّة حينئذ، أن تؤخّر طموحات أبيها في أن يصير المهندس الأكبر، حين خلّصت "الرجل ما" من عبئه، وحملته عنه تسعة أشهر، لتضطرّ في الأخير على التّخلّص منه أيضاً تنفيذاً لأوامر أبيها.

ومع ذلك، وعلى خلاف ما يمكن تصوّره في امرأة تهوّرت، ثمّ تابت

وبلغت هذا العمر، فقد أبقت أميرة في حياتها على قدر محترم من التّمرّد. سمح لها - بمثل ما يسمح به السّرّ عادة - أن تعيش حياة عُهر تليق بمقام أيّ مومس محترمة. ولعلّ تلك كانت طريقة السماء في الانتقام من الرجل الضئيل وغيره من آلهة المدينة الدولة، بأن منحتْهم أولاداً غريبي الأطوار لا يستقرّون على جنس محدّد، إذ يُولَدون ذكوراً، ينتهون إلى إناث، أو إناثاً يملكون شهوة الذكور. وإذا حدث أن رأفت بهم المشيئة، واستقرّوا على جنس محدّد، يتعهّرون على نحو يجعل الجنس إدماناً مرضياً، كإدمانهم لأيّ شيء يصلح لذلك.

كان انتقام السماء شكلاً من العدالة، وطريقة مؤدّبة للرّدّ على آلهة المدينة الدولة بعد أن حجرت على مشيئتها، وتمكّنت من تحاشي قراراتها، بما فيها المتعلّقة بالموت مثلما حصل مع الإله الرّومبيّ، أو قراراتها المتعلّقة بالحياة والرزق حين وقفت هذه الآلهة المزيّفة حاجزاً بينها وبين الناس، تمنعهم عنها، على عكس ما كان يحدث في عصر إيلاغين حين لم يكن أحد بمقدوره استعداء السماء، وكان على اختلاف اسم الجالس في عرشه وصفاته بالنسبة إليهم أوّل مَنْ يُسترضَى، وآخر مَنْ يُستعدَى.

وكأيّ شيء يظهر صغيراً، ثمّ وبلا سبب محدّد يتسّع ليملأ الكون، كانت صرخة أولغا وهي تشاهد عودة ما لم تعد تؤمن بعودته. تماماً كالحبّ، كالعدوى، كإشاعة تبدأ كذبة، لتنتهي إلى حقيقة، لا يناقشها أحد.

كانت صرخة مدوّية، غطّت على الصراخ القادم كله من الشارع، بما فيه صراخ نساء، كنّ يُغتصبنَ بلا سبب منذ أن عمّت الفوضى، وصارت كلمة القانون لا تعني شيئاً أكثر من حروفها، ولكنها كانت صرخة مختلفة في النهاية. ربمّا ولهذا فقط، انتبه الناس في الشارع لها، ورفعوا رؤوسهم على غير عادة مَنْ أدمن الطأطأة.

كانت أولغا تصرخ مشيرة بسبّابتها إلى الجهة المقابلة لشقّتها بعينَيْن تدمعان، ويد ترتعش.

صرخت. صاحت، وفي الأخير تمكّنت من أن تقول شيئاً بالكاد فهمه الجميع:

"انظروا .. هناك أبواب".

قالت ذلك، وأُغمي عليها.

بعدها، سادت لحظة صمت غريب كالتي تملّكت الكون حين ابتلع فيها "كرونوس" أبناءه الآلهة. ربّما كانت تلك أوّل لحظة تعيشها المدينة الدولة في سكون يشبه السكينة، بحيث توقّف صراخ الناس، وتراجع الضجيج وهتاف المتظاهرين الذي لم يكن ليفهمه أحد. حتّى البكاء والنحيب توقّفا عند عتبة سكون، أخرج الكاتب الذي كان لحظتها منشغلاً بكتابته من حالة اللاوعي التي دخل فيها، بمجرّد أن عاودتْهُ الموهبة، مباشرة بعد قراءته لرسالته المتأخّرة خمس سنوات.

اتّجه الكاتب إلى الشرفة بقلب مرتجف وقد تحجّر عقله بعد أن أعجزه إيجاد سبب ممكن لكل هذا القَدْر من السكون المفاجئ. فكما تكيّف مواطنو المدينة الدولة مع الفوضى، تأقلم الكاتب مع عالم تسوده الأصوات، ويملؤه الضجيج، بحيث إنه ما إن قرأ تلك الرسالة إلى زوجته حتّى لم تعد طقوس الكتابة التي تبنّاها ذات يوم مهمّة كما كانت من قبل. لم يعد يحتاج إلى سفر طويل، ولا إلى مكان تحيطه العزلة، ويحتضنه السكون. كل ما صار يحتاجه هو الجلوس خلف شاشة حاسوبه لا غير. وما إن وقف عند عتبة شرفة صالة المعيشة، حتّى فهم أخيراً سبب الصمت الذي ابتلع الكون على حين غِرَّة، فلقد عاد باب شرفته إلى حيث كان

قبل أيّام، وسدّ ذلك الفراغ المقيت، بحيث منح الكاتب أماناً، لم يؤمن بعودته قطّ، ووهب المدينة الدولة، في الوقت نفسه، الكثير من الأمل.

ومع أن الأمور قد تحدث بلا سبب، فليس وارداً أن تظهر هكذا من العَدَم، فلا شيء في الكون يبدأ أو ينتهي إليه، إلا إذا عددناه حيِّزاً مكانياً مختلفاً عن الخَوَاء أو اللاشيء، وهو الواقع الذي أثبتْهُ العقل، ولم تمسكه يد. في هذه الحالة يملك العَدَم قوانين تتحكّم في سير الأمور عن نحو مختلف تماماً عمّا يحدث في قوانين، تتبجّح بمعرفة الأبعاد والأحجام، وتدّعي أنها قادرة على قياس الزمن، وتملك ما يجب من معايير، تميّز بها بين الصدفة والقَدَر.

في الصورة الكاملة، تلك التي لم يرها أحد، كان الكاتب كلّما تقدّم في الكتابة تراجع ضجيج الشارع، حتّى إنه بمجرّد أن بلغ منتصف ما سيسمّيه لاحقاً فصلاً، توقّف الضجيج مرّة واحدة، ليس لأن الكاتب تمكّن من بلوغ الخشوع الكامل في الكتابة، بحيث تجاهلت حواسّه كل ما يحدث في الخارج، بل لأن باب شرفة صالة المعيشة ظهر فجأة في الوقت نفسه، وما إن أنهى الفصل كاملاً، عاد باب الشّقّة، وهكذا كلّما تقدّم في نصّه الجديد ظهر باب في مكان ما، مباشرة بعد أن عادت جميع نوافذ وأبواب شقّته ذات الغرفتَيْن.

الفصل السابع

احتاج الأمر لخمسة أيّام أخرى لتعود أبواب شقّة الكاتب كلها إلى مكانها، وإلى عشرين يوماً لتبدأ المدينة الدولة في استعادة بعض الأبواب هنا وهناك. وفي هذا الوقت كله، كان الكاتب قد تقدّم في كتابة نصّ جديد. لم يكن يعرف متى سينتهي، ولكنه كان على يقين بأنه رواية جديدة، لم يبقَ على انتهائها الكثير.

كان يُوصِل الليل بالنهار، يكتب نصّاً لم يفهم قطّ كيف تشكّل في رأسه مكتملاً على هذا النحو الغريب. وكان قد راسل "الرجل صاحب اسمه" يُبشِّره بروايته الجديدة. ومع أنه لم يجبْهُ بشيء، إلا أن الكاتب تفهّم غضبه وعدم ثقته فيه، بسبب تخلّفه لأكثر من سَنَتَيْنُ عن وعده الذي قطعه له قبل عشرة أعوام في أن يرسل إليه رواية جديدة كل سنة.

كان الكاتب غارقاً في شؤونه، إلى درجة أنه لم ينتبه إلى ما جَدّ في "المدينة الدولة" مباشرة بعد اختفاء الآلهة وعودة ظهور بعض الأبواب. ففي اليوم العشرين بعد اختفائها، ظهر جمال حميدي في نشرات الأخبار على كرسيّه المتحرّك وخلفه رجال أكثرهم وسامة "موح بوخنونة" بأنفه المزكوم دوماً، يعلن قبوله بشرف تسيير المدينة الدولة إلى حين يختار الشعب رئيسه الجديد.

وكعادته بدأ حديثه بجملته الذّكيّة نفسها "انتابني شعور غامض بحدوث

الأمر"، ولكنه هذه المرّة لم ينتهِ بتمجيد الثورة والتّرحّم على الشهداء كعادة سياسيّي ذلك الزمن.

بدا جمال حميدي مختلفاً عمّا كان عليه. كان أنيقاً، يتحدّث بصوت هادئ، وبكلمات دقيقة تخرج من فمه المتبسّم وكأنها قطع شوكولاتة مغموسة في العسل. حتّى إن المحلّل السّياسيّ الذي ظهر لاحقاً مُعقّباً على خطابه، شبّهه بالأب الحنون وهو يحلّل خطابه التّاريخيّ الذي عدّه عقداً اجتماعياً، يبدو أمامه عقد "روسو" مجرّد مسوّدة لعمل غير مكتمل. وقال إن خطابه على الرغم من قصره تمكّن من وضع خارطة طريق، ستُخرِج البلد من مشاكله كلها. وعن بعض العثرات اللّسانيّة التي لوحظت على جمال حميدي وهو يتكلّم، قال المحلّل إنها كانت طريقته ليشعر الناس أنه مثلهم في الثقافة، فبحسب مصادر لا يرقى إليها شكّ، يتحدّث جمال حميدي تسع لغات حيّة وخمساً ميتة، كما يُتقن بعض اللغات بلهجاتها كلها.

ونشرت الصحافة في اليوم التالي السيرة الذّاتيّة لجمال حميدي، معلّقة بأنه الرجل المناسب للوضع لاعتبارات كثيرة، أهمّها أنه كان عميد البوّابين في البلد، وأنه مُقعَد ومشلول، وهي صفة تجعله أكثر قرباً من شعب، لم يعد يثق كما كان سابقاً في الكائنات الممتازة والرجال الخارقين الذي فشلوا في حكمه لعقود. ما يعني أن كل ما يحتاجه الشعب هو رجل كجمال حميدي يشبهه في العاهة. ومع ذلك شملت السيرة مسيرته العلمية المتخيّلة، والتي احتاجت لكتابتها عشر صفحات من مجموع صفحات الجريدة الأربعة والعشرين.

ومنذ ذلك الحديث المؤثّر أصبح جمال حميدي يظهر في كل مكان، مُنظّراً لوطن مختلف، يحكمه الشعب، ولا تُغلق فيه الأبواب. وكان في كل

مناسبة ينتقد الآلهة عادّاً أنها تسبّبت في خَلْق هُوّة بين الشعب والسلطة، وأنه يجب التأسيس لدولة قانون، يتمتّع فيها المواطن بحقوقه جميعها، بما يعنيه ذلك من عزّة وكرامة لا تتعلّق بتاريخه ولا بثورته ولا بشهدائه. حقوق يفرضها منطق وحيد، هو أنه شعب يعيش على الأرض نفسها.

الحقّ، كان جمال حميدي مقنِعاً إلى درجة أن بدأت الحشود في أرجاء البلد كله تتظاهر يومياً للمطالبة به رئيساً شرعياً للبلد، وهو ما تمّ بسرعة لم يتصوّرها حتّى الرجل الضئيل الذي كان قد أضاف صورة جديدة على جداره للإله الزّومبيّ منذ أوّل ظهور لجمال حميدي كمخلِّص حتمي للبلد. وكان قبلها، وفي الليلة السابقة لاختفاء الآلهة، قد استدعى جمال حميدي إلى مكتبه لآخر مرّة.

وما إن رآه حتّى دعاه إليه، وقام وقبّله على جبهته كإشارة احترام، لم يسمع جمال حميدي بأحد ممّنْ سبقوه حظي بقبلة كهذه من الرجل الضئيل.

قال وهو يُربّت على كتفه مبتسماً:

- سيكون هذا آخر لقاء بيننا.

- آخر لقاء؟

تساءل جمال حميدي، وكان وقتها قد تخلّص من تردّده وتلعثمه في الكلام. فلم يعد الرجل الضئيل بالنسبة إليه مخيفاً، كما كان بقدر ما أصبح مهاباً كأب حنون وقويّ.

أضاف بصوت دافئ:

- لقّنتُكَ كل ما يجب لتكون سياسياً محنّكاً، وأعتقد أن بمقدورك الآن أن تصير أكبر.

ومدّ إليه يده ليُريه شيئاً.

كان ممسكاً بصورة الإله الزّومبيّ وهو في صندوق خشبي، يشبه صناديق المشافي. بدا ضعيفاً إلى درجة أن شعر جمال حميدي ببعض الحزن عليه وهو ينظر إليه فيها، وتملّكه الكثير من الأسى المتبّل بشفقة غير صادقة.

لكن مشاعر غريبة اكتسحتْهُ وهو يرى الرجل الضئيل يعلّق الصورة على جدار الأرباب الموتى بمكتبه، بحيث ضمّتْهُ غبطة نادرة لم يشعر بها من قبل، سوى في أوّل مرّة مارس الحبّ فيها مع أولغا، فمع أنه لم يُخبرها قطّ، كانت تلك أوّل مرّة يمارس فيها الجنس في حياته.

حرّك جمال حميدي رأسه، بحيث جحظت عيناه، وفتح فمه بالقدر اللازم والمحسوب، لتتشكّل على وجهه ملامح دهشة، لم تكن حقيقية، وهو ما أدركه الرجل الضئيل في الحين من غير جهد.

ابتسم سعيداً بما صار عليه تلميذه من قدرة رهيبة في اختلاق المشاعر.

شعر أيضاً بالرضا، بدليل أنه في لحظة نادرة عاودتْهُ الإنسانية فيها، وضع يده على كتف تلميذه، وراح يهمس في أذنه بشيء جعل جمال حميدي مبتهجاً، ثمّ همس له مرّة ثانية، فازداد غبطة.

كان مشهداً لطيفاً،فلم يحدث قطّ في قصر الحكومة أن شعر أيّ أحد بالألفة مع الرجل الضئيل، فباستثناء جمال حميدي، لم يحظَ أيّ شخص وإن كان إلهاً بشرف أن يقترب منه صاحب الطابق التّحتيّ بهذا النحو، أو أن يتشرّف بلمس يد، لم تُخلَق إلا لخَلْق الآلهة والعوالم الموازية. وكان لهذا

الشرف أن يُنقَش في رأس جمال حميدي إلى الأبد، لو لم يحدث ما محا هذه الذكرى، وجعلها تُوصَف في أحسن الأحوال بالمُذِلّة.

فقد حدث وقتما كان الرجل الضئيل يهمس في أذن مريده لمرّة ثالثة، أن ازدادت غبطته، وراح يقهقه إلى درجة أن اهتزّ جسده الضخم كله مرّة واحدة، وفقد توازنه، ليسقط فجأة على وجهه. وعوض أن يسعى الرجل الضئيل إلى مساعدته، بقي ينظر إليه مبتسماً وكأنه كان مستمتعاً بمشاهده جمال حميدي غارقاً في عجزه.

كان مستمتعاً بلا شكّ، مُستلذّاً بعجزه وهو يشاهده يزحف على بطنه، محاولاً قلب نفسه من دون جدوى. كان وهو يفعل ذلك يشبه سلحفاة قُلّبت على ظهرها، مع فارق أنه كان أكبر حجما وأكثر إضحاكاً.

ومع أن الرجل الضئيل بعد ذلك ساعده على الجلوس، وسوّاه على كرسيّه المتحرّك، وقضى معه أزيد من عشر ساعات، يُحضِّره فيها ليكون حاكما مهاباً، إلّا أن جمال حميدي رغم عشرات الوصايا التي أوصاه بها معلّمه، أدرك أن أهمّ درس تلقّاه في ذلك اليوم كان حين سقط على وجهه يزحف تحت قَدَمَي معلّمه كَحَيَّة بلا سمّ.

وقبل أن يغادر المكتب، سلّمتْهُ السكرتيرة العجوز ملفّاً ضخماً، أخبرتْهُ أنه من لوازم العمل. تفحّصه جمال حميدي بسرعة قبل أن يُلقيه في سلّة بجوار مكتب السكرتيرة مدّعياً أنها أمور حفظها عن ظهر قلب، سبق للرجل الضئيل أن لقّنه إيّاها، ثمّ انصرف من غير أن يلتفت خلفه، ولو فعل، لرأى الرجل الضئيل منحنياً، يلتقط الملفّ الذي في السّلّة.

قال ضاحكا بمجرّد أن انتصب مخاطبا أميرة "يبدو أن عطلتنا لن تطول". وضحكت المرأة العجوز أيضاً في الوقت نفسه وهي تتسلّم الملفّ مجدّداً،

لتضعه على الرّفّ الثالث نزولاً في مكتبة الرجل الضئيل، والذي على خلاف الرفوف الأخرى لم يحمل إلا كتاباً قديماً بغلاف ممزّق، أبقى على جزء يسير من عنوانه: De Principatibus/Il Pricipe

في هذه الأثناء، وليس بعيداً عن قصر الحكومة، بلغ عصام كاشكاصي سلالم ترولار قادماً من جهة تيليملي. كان يأمل أن يرى أولغا واقفة على شرفتها، كما اعتادت أن تفعل معظم ساعات النهار منذ أن بدأت الفوضى في ابتلاع المدينة الدولة، وكانت قبل ذلك لا تخرج إلى شرفتها إلا ليلاً، لئلّا يلاحظها أولاد الحومة، ويبدؤون كعادتهم في الصراخ بنكت بذيئة، ألّفوها عنها خصّيصاً بعد أن عادت إلى بيت والدها حين تطلّقت من جمال حميدي. فقد ساد الاعتقاد وقتها أن كل امرأة اختارت ألا تتزوّج أو طُلّقت لسبب أو لآخر مجرّد عاهرة، لا تستحقّ أيّ احترام.

وكان مبعث هذا الاعتقاد ما تراكم من كبت جنسي، عمدت إلى غرسه الآلهة الجديدة في أرواح المواطنين بلا رأس، حتّى نجحت في خَلْق مجتمع ذكوري، يعدّ المرأة مجرّد كسّ ومتعة سرير لا غير، وحين يمنحها مكانة ما، فلا تكون إلا زوجة أو أختاً أو أُمّاً، وخارج هذه الدائرة هي مشروع عاهرة، لم تتعهّر فقط لأن الوقت لم يحنْ بعد أو لأن ظروفاً معيّنة حالت دون ذلك.

في عالم المواطنين بلا رأس، كان الحبّ مرادفاً للجنس الذي لم يعد مجرّد رغبة تحدث كما في العالم كله بين راشدَيْن قرّرا أن يقضيا وقتاً ممتعاً معاً، بل فعلاً حيوانياً فقط، يحمل أحد الوصفَيْن لا غير: مقبول إذا تمّ بوثيقة، ومُشين إذا حدث بغيرها.

وكان عصام كاشكاصي من أجل أن يرى أولغا يتعمّد الوقوف في ساحة تتوسّط المنعطف الثالث من الحَيّ، وهو مكان اعتاد أولاد الحومة السهر

فيه، بكل ما يشمله السمر من أفعال لطيفة كشرب بعض عبوات البيرة أو تدخين ما يمكن من وحشيش وزطلة وابتلاع ما يجدونه من أقراص مهلوسة، تجعل حياتهم محتملة عكس ما هي عليه في الواقع. وأحياناً حين يلثمهم الحظّ، وتعطف عليهم أفروديت ببعض الحبّ، يمارسون الجنس في قبو قديم، بُني تحت الساحة، كان في أوّل عهده، يحفظ مولّدات الكهرباء، وبعد أن تغيّرت طُرُق وصل الكوابل تحوّل إلى قبو جمع ما قدّرت له المشيئة أن يجمع من قصص الحبّ الغريبة والشّاذّة أحياناً.

كان أولاد الحومة يُفضّلون السهر في هذه الساحة، بسبب موقعها الذي يسمح لهم بالفرار من قبضة البوليس في كل اتّجاه، فقد كانت تتوسّط ثلاثة شوارع: ترولار والدوق ديكار و٢٤ فبراير، وتطلّ على سلالم ترولار المشرفة على مخفر الشرطة وشارع الدكتور سعدان، وعلى جانب من شارع أودان المحاذي للجامعة المركزية. وهي ميزة تجعلهم يستشرفون الخطر على نحو، يمنحهم فرصاً معقولة للفرار عبر أزقّة داخلية، لا يعرف وجودها إلا مَنْ أقام دهراً في الحَيّ.

في هذا المكان، كان عصام كاشكاصي يقف أحياناً وسط الفوضى كلها التي يمكن أن يتصوّرها الواحد بعد اختفاء الأبواب أملاً في رؤية أولغا. لم يكن عشقاً ما شعر به تجاهها، بل نوعاً من الفضول يشبه ما انتاب الكاتب حين رأى صورة الرجل الزّنجيّ أوّل مرّة، ولكنه اختلف عنه في أنه كان فضولاً لا يُشعِره بالقلق، بل بنوع بريء من الحبّ، ازداد وضوحاً، بعدما وجد صورة أولغا في ملفّه الذي عثر عليه في مكتب المخابرات.

في البداية لم يعر الأمر انتباهاً، فقد كان ملفّه يعجّ بصور أناس كثيرين ممّنْ صادف في حياته، ولكنه انتبه أن صورة الكاتب لم تكن مرفقة بالملفّ، على الرغم من أنه الشخص الوحيد الذي لاحظ وجوده،

وأبدى شيئاً من الرأفة تجاهه. أدرك أن هناك سبباً لوجود صورة أولغا دون الكاتب، خاصّة إذا أخذ بعين الاعتبار ما يتملّكه تجاهها من مشاعر غريبة، لا يبرّرها شيء محدّد.

في ذلك اليوم لم تخرج أولغا إلى شقّتها، ليس لأنها كانت مُتعَبَة أو نائمة أو منشغلة بمشاهدة الأخبار، بل فقط لأنها لم تكن متواجدة فيها، فقد حدث أن مرّ عليها جمال حميدي، وخرجت معه بعد أن كلّمها في الهاتف، مُبدياً رغبته في أن تعود إليه. وكأيّ كائن يجمع بين المنطق والوحدة، قبلت به مع علمها أن عنّته تمكّنت منه أخيراً، ولن يحدث بينهما إلا ما سيحدث في خيالَيْهما فحسب. ولكن صفته الجديدة كرئيس محتمل للمدينة الدولة وبقاء موح بوخنونة بجواره وهو الذي عرفت فحولته لأكثر من مرّة، حقيقتان جعلتاها تقبل عرض جمال حميدي من دون تفكير مُملّ.

حين يئس عصام كاشكاصي من خروج أولغا إلى شرفتها، قرّر الذهاب إلى حيث اعتاد أن يذهب كلّما شغله أمر ما.

نزل السلالم السبعة بدرجها الـ ١٢٢. بدت خطواته قصيرة، وأحسّ بثقل في ساقَيْه، وبألم شديد بركبَتَيْه يزداد شدّة مع كل خطوة يخطوها. لأوّل مرّة أدرك أن العمر الذي تجاهله تمكّن منه أخيراً، ولم يعد يجديه أن يعامل الحياة بمثل ما عاملتْهُ به لأزيد من سبعة عقود، قضى الكثير منها في الاختباء خوفاً ممّا لم يعرفه أبداً.

بدا البحر على مَرمى ناظرَيْه كخلاص أكيد لشعوره المفاجئ بالضيق، ولكن أمل الوصول إليه قريباً جعل ألم ركبَتَيْه يقلّ حدّة، وشيئا فشيئاً تلاشى وكأنه لم يحدث قطّ. وعلى عكس ما كان ينتاب الكاتب كلّما نزل سلالم ترولار، لم يلاحظ عصام كاشكاصي كيف يبدو العالم من فوق صغيراً، ممعناً

في الحقارة، حتّى إن الناس بدوا من أعلى مجرّد نقاط تافهة، يمكن ألّا تُلاحَظ، أو صراصير لا تتحقّق المتعة الكاملة إلا بسَحْقها. لم يفكّر أيضاً في تلك العلاقة غير السّويّة بين السلالم، بحيث كانت التي في الأعلى أكثر نظافة من تلك التي في الأسفل، وكأنه كان مقدّراً حتّى على الأشياء أن تحتمل قذارة الأعلى، فقط لأن المشيئة جعلتها في الأسفل.

وحده البحر رغم موقعه "في الأسفل" كان قادراً على ابتلاع القذارة كلها، ليُعيدها إلى أصحابها، ووحده منح جمال كاشكاصي سكينة، سمحت له أن يستعيد بعض استهتاره بالحياة كما فعل لأزيد من سبعين سنة، بمجرّد أن بلغ الميناء، واختار له مكاناً، جلس فيه بين صخوره. وكان ليبقى هناك لساعات أخرى، لم يلمح شيئاً يطفو على الماء، تدفعه الأمواج إليه.

كان صندوقاً خشبياً علق بين الصخور غير بعيد عنه. وبخفّة شابّ لا تليق برجل تجاوز السبعين جرى جمال كاشكاصي نحوه. أدرك بمجرّد أن انحنى عليه أنه صندوق موتى من النوع الذي في المشافي.

في الوقت نفسه، كان الرجل الضئيل يقود سيّارة "مازدا ٦٢٦" بيضاء قديمة من عام ١٩٨٨ ذات الخرّانَيْن، وبجواره ابنته أميرة بعد أن تخلّصت من وجه السكرتيرة الصارم. وكانت رغم احتقارها لهذه السّيّارة القديمة التي تعمّد والدها ألا يسوق غيرها رغبة في ألّا يلاحظه أحد، تحبّ ركوبها في كل مرّة يعرض عليها إيصالها إلى البيت، مفضّلة ترك سيّارتها في حظيرة السّيّارات بقصر الحكومة. فقد كان الوقت الذي تقضيه معه فيها هو كل ما سُمح لها به لتكون ابنة فحسب، وفي غير هذه الفسحة هي مجرّد سكرتيرة صارمة لرجل غامض وخطير.

قالت رغبة في تلطيف الجوّ:

- إذا استمرّ الأمر هكذا، فلن نحتاج إلى مكيّف هواء في بيوتنا أو سيّاراتنا.

وكانت تشير بلا شكّ إلى واقع أن السّيّارة بلا أبواب، ممّا اضطرّهما إلى وضع حزام الأمان على غير عادتهما.

لم يعلّق الرجل الضئيل بشيء، واكتفى بالصمت، وفجأة حين يئست أميرة من أن ينبس بأيّ كلمة، قال:

- أعرف ما فعلتِ.

ارتبكتْ من غير أن تُظهر ارتباكها. ابتسمت في البداية، وربّما أرادت أن تتصنّع الضحك حتّى تُخفي حقيقة الرعب الذي تملّكها بمجرّد أن نطق أبوها بتلك الجملة، ففي العادة لا يقولها لأحد إلّا وكانت ثاني جملة بعدها أمراً صريحاً بالقتل. وكانت تعرف أنه لا يأبه بكونها ابنته إذا رأى أن موتها ضروري من أجل مصلحته.

أضاف بصوت أكثر حدّة:

- منذ خمسين سنة وأنا أنتظر أن تعترفي، ولكنكِ لم تفعلي، رغم إدراكِ أنني أغفر كل شيء إلا أمرَيْن الخيانة وعدم الامتثال لأوامري. المصيبة أنكِ خنتِني وعصيتِ أمراً كان واضحاً.

قالت وبحّة كالبكاء تنحت صوتها:

- عن أيّ خيانة تتحدّث؟

- حين أنقذتِ ذلك الكلب الذي حبلتِ منه قبل خمسين سنة. هل اعتقدتِ أنني لم أعلم؟ أنتِ حمقاء، كأنكِ لستِ من صلبي. عملي يقتضي أن أعرف كل شيء يحدث قبل أن يحدث.

صمتتْ مُصرّة على النظر صوبه بعينَيْن اغرورقتا دمعاً. لأوّل مرّة شعرت بالرعب منه، لم يكن خوفاً فحسب. كان شعوراً شبيهاً بالموت، فصل روحها عن جسدها لدقائق، ولولا ما قاله لاحقاً، لانتقلت روحها إلى السماء مخلّفة جثّة، لثمها الموت على حين غِرّة.

- لا تخافي. كل ما في الأمر أنني رغبتُ أن تعرفي ذلك. هل تذكرين على الأقلّ اسمه؟

- عصام ..

- نعم، عصام كاشكاصي.

- هل قتلتَهُ؟

- فعلتُ أكثر من قَتْله. لو تركتني أقتله، لكان أفضل له. لقد جعلتُهُ يعيش حياة هي أبشع ما يمكن أن يحتمله أيّ إنسان، ولكنني أعترف أنه ظلّ عَصيّاً على الموت.

وفجأة صرخ: اللعنة على الضعف.

وبصق على وجهها، مُخرِجاً قطعة نقدية من جيب جاكيته، وألقى بها إلى الخارج. وكانا وقتها قد بلغا "جسر لافيجري" الرابط بين الطريق السريع وحسين داي شمال الصابلات في "اتّجاه بئر خادم". ومن أعلى الجسر، انحدرت القطعة النّقديّة مع الطريق السريع، ثمّ تقاذفتْها الأرجل وعجلات السّيّارات حتّى بلغت مشارف "التافورة"، ومن هناك حملتْها مجاري صرف المياه إلى البحر، لتحطّ بجوار المكان الذي كان فيه عصام كاشكاصي واقفاً، يحاول فتح الصندوق الخشبي. ومع أنها استقرّت على بُعْد مترِيْن منه إلّا أنه لم يلاحظها، منشغلاً بالجثّة التي عثر عليها.

أزاح الكفن عن وجه الميت. كانت الجثّة تفوح برائحة كريهة، شعر بمجرّد أن ملأت خياشيمه بالرغبة في التّقيّؤ، ولكنه بالرغم من حدّة الرائحة صرخ مذعوراً "يا إلهي"، وهو يشاهد وجهاً، سبق أن رآه في الصور التي كانت في ملفّه بمكتب المخابرات.

وكانت الشمس تحضِّر نفسها للمغيب، حين انصرف عصام كاشكاصي إلى حيث لم يكن يعلم، مخلِّفاً قطعة نقدية لم يرها، وصندوقاً من الخشب، لم تمكّنه الصدفة ولا القَدَر من قراءة جملة، كُتبت على أسفله: "إبراهيم بافولولو".

خاتمة

ومثلما نصحه الرجل الضئيل، أعلن جمال حميدي عن حكومته التي أراد لها أن تكون انعكاساً فجّاً لحقيقة الشعب. قرّر بفضلها أن تصبح العاهة صفة محمودة كالقبح تماماً، حتّى أنه وهو يعرض سِيَر أعضاء حكومته، لم يبذل أدنى جهد في التّستّر على ما كان يُعدّ قبل عهدته سوابق أو شذوذاً أو وضعاً لا أخلاقياً بامتياز.

كان شعاره أن الوطن للجميع، ولأنه كذلك، فإنه من غير المعقول ألا يقبل الشعب بوزير عاطل عن العمل، أو صاحب سوابق وجرائم تاب عنها، أو حتّى عاهرات لا ذنب لهنّ إلّا أنهنّ يصنعنَ سعادة المكبوتين.

ولمزيد من الإتقان أعاد جمال حميدي أولغا إلى عصمته، فكان لا يظهر في مكان بكرسيّه المتحرّك وعنّته التي اعترف بها في خطاب تَولّيه الرئاسة، إلا وظهرت معه أولغا وقد نزعت الحجاب الذي لم ترتده سابقاً إلّا إخفاء لمرضها بالبرص. وكانت مع زوجها الرئيس كلّما أخذا صورة مع طاقم الحكومة، إلا وخُيِّل لمَنْ بقي محتفظاً ببعض العقل، أنه في حضرة مسوخ غريبي الأطوار في سيرك، احتفظ بالاسم القديم نفسه للمدينة الدولة.

كان الأمر غريباً ومضحِكاً في آنٍ واحد، ولكنه، بالرغم من ذلك، كان يُعبِّر عن حقيقة المدينة الدولة وسكّانها الذين تمكّنوا أخيراً من استبدال وصفهم بـ "الغاشي" بكلمة استحقّوها بجدارة هي الشعب. وما كان لهم أن يحقّقوا

ذلك، لو لم يقرّر رجل ضئيل أن عصر الرجل الأفضل قد انقضى بلا رجعة، وأن أفضل ما قد يحدث للشعب هو أن يرى صورته في المرآة، ويكتشف حقيقة أنه مجرّد شعب معوّق، يكفيه فقط أن يقرّ بذلك، ويتصالح مع حقيقته، ليعيش حياة أكثر سعادة ممّا عاشها حين كان شعباً خارقاً، يملك ثورة وملايين الشهداء وتاريخاً صنعتْهُ الآلهة.

ومع الإعلان الرّسميّ لتوليّ جمال حميدي سدّة الحكم، وإعلانه عن تشكيلة حكومته غريبة الأطوار، كان الكاتب على وشك الانتهاء من روايته الجديدة، حين أدرك وهو في أسطرها الأخيرة أنه قضى وقتاً لم يحلق فيه ذقنه. وكان سبب اكتشافه هذا، عادة قديمة اكتسبها منذ عقود، تجعله يحكّ خدّه كلّما وجد نفسه في مأزق ما. وكان مأزقه هذه المرّة، أن الرجل صاحب اسمه لم يردّ عليه رغم إصراره في الاتّصال به.

كانت تلك أوّل مرّة يتجاهله فيها، ولا يهرع كعادته للرّدّ على رسائله المبشّرة برواية جديدة. حتّى إن الكاتب تهوّر وشكّل عدّة مرّات رَقْم هاتف الرجل صاحب اسمه، ليجده مشغولاً في كل مرّة.

لم يكن في شقّة الكاتب تلفاز، فمنذ خمس سنوات منذ عودته من مرسيليا تخلّص منه.

كان وقتها رجلاً يؤمن بكل ما كان يقرأ في سِيَر الكتّاب العظام، وهؤلاء في نظره كتبوا روائع فقط، لأنهم وجدوا في عصور كفرت بالملهيات. لم يكن لديهم نت ولا مواقع اجتماعية لا عمل للكاتب فيها إلا تضييع وقته في قراءة منشورات سخيفة، لأناس يعتقدون أنهم مركز العالم، أو في دردشات، تبدأ بالاحترام عادة، لتنتهي إلى هلوسة جنسية لا معالم فيها.

كان الكاتب مؤمناً بأن الكتابة العظيمة تحتاج إلى قرارات حياتية حاسمة،

بدأها بالتّخلّص من تلفازه، وبقَطْع النت عن بيته، ورفضه المستميت لكل عالم افتراضي، يحيله إلى مجرّد صورة ونقطة خضراء. ومع ذلك، لم يكن بمقدوره التنازل عن كل ما وهبه العالم المتحضّر من غاز وكهرباء ومكيّف هواء وراديو، ولو كان مُجبَراً على الاختيار بين هذه، لاختار بلا شكّ الإبقاء على الراديو، والتّخلّص من البقية، ذلك أنه لأسباب نوستالجية لم يدركها، ربمّا تعلّقت بأُمّه، كان يحبّ الاستماع إلى الراديو في كل وقت، خاصّة حين يشرب قهوته الصّباحيّة أو وقتما يأخذ دشّاً أو لمّا يحلق ذقنه.

وكان الراديو مشتغلاً حين توجّه الكاتب إلى الحمّام ليحلق ذقنه. كان الصوت الشبيه بصوت الرجل الوسيم في نشرة الأخبار يقرأ التقرير الشّهريّ للدرك، وبحسبه فقد استتبّ الأمن مجدّداً، وصار كل شيء على ألف خير، بفضل التوجيهات الحكيمة لجمال حميدي وطاقمه الحكومي الساهر على تطبيق برنامجه بكل جدّ. ثمّ راح الصوت يقرأ بعض الأحداث الغريبة التي شهدتْها المدينة الدولة، أغربها العثور على مومياء بنواحي "بينان"، تقاذفتْها أمواج البحر. وجاء في التقرير، أن صبيّاً من سكّان بينام أبلغ الدرك بعثوره على جثّة ملفوفة بقماش أبيض، حملها الموج إلى هناك. وعند تنقّل فرقة من الدرك إلى موقع الحادث، وجدوا تلك الجثّة عالقة بين الصخور البحرية، وغير بعيد عنها حطام من الخشب، يُفترَض أن يكون ما تبقّى من قارب، حمل الجثّة أو صندوقاً لدفن الموتى. وأضاف التقرير أن مصالح الدرك استدعت خبراء في علم الإنسان للتّحقّق ما إذا كان ما عثر عليه مومياء قديمة أو مجرّد جثّة حديثة الموت، كما أكّد التقرير نفسه على عثور مصالح البحث على قطعة نقدية غير بعيد، أكدّت البحوث أن عمرها يزيد عن الثلاثة آلاف سنة، وهو اكتشاف أثريّ، لم يحدث في المدينة الدولة من قبل.

كان الكاتب يرغب في الانتهاء من حَلْق ذقنه بسرعة، ليعود إلى حاسوبه، ويُنهي روايته التي لم يكن قد اختار لها عنواناً بعد. ولكنه قبل أن يضع رغوة الصابون على وجهه، وقبل أن يعدّ شفرة موسى الحلاقة الذي ورثه عن أبيه، بقيّ متسمّراً في مكانه وهو يرى وجهه في المرآة.

صرخ "يا إلهي"، مذعوراً وكأنه رأى شبحاً للتّوّ.

كانت عيناه جاحظَتَيْن وشفتاه مرتعشَتَيْن، تُتمتمان بشيء، لم يكن بمقدور أحد أن يفهم مغزاه، فقط الصمت مَنْ كان قادراً على جمع ما كان يصدر من حلقه، ليتفكّك بين شَفَتَيْه مشكّلاً كلمة واحدة لا غير .. غريجا ..

وبيَدَيْه المرتعشَتَيْن أخذ الكاتب يتحقّق من وجهه من غير أن يرفع بصره عن المرآة. وفجأة، خرج من الحمّام مهرولاً إلى غرفة نومه، وأخذ يُقلّب في كل الصور المعلّقة على جدرانها، والتي تُؤرّخ ليوم زفافه. وما إن فعل ذلك، حتّى تراجع متمايلاً غير قادر على الوقوف.

جلس على حافّة السرير، ينظر إلى نفسه في مرايا خزانة نومه. في انعكاسه كان هو، ولكنْ، بوجه رجل زنجي، بأنف عريض، وجبهة ضيّقة. ثمّ وبتسليم لواقع أبشع من أيّ خيال نظر مجدّداً إلى صوره على الحائط. كان هو أيضاً، ولكنْ، بوجه غريجا، حتّى زوجته كانت في الصورة امرأة سوداء.

شعر بالضيق، وبرغبة مفاجئة وطارئة في التدخين، فخرج إلى شرفته، وأشعل سيجارة.

أخذ نَفَساً عميقاً، ثمّ نفث الدخان في الهواء وهو ينظر إلى أقصى ما قد يبلغه بصره، ليتمكّن من رؤية أوّل درج في أوّل سلّم نزولاً من سلالم ترولار.

بَحْلَقَ لبعض الوقت يحدِّق في لا شيء، حتّى تراءى له رجل القمامة قادماً كعادته من العَدَم.

نظر إلى ساعة يده. كانت الثانية صباحاً.

رفع رجل القمامة رأسه، ولوّح إليه بيده. كان يسأله شيئاً، ربمّا سيجارة. هذه المرّة لم يكن على رأس الرجل قبّعة. كان شَعْره أبيض كسحابة صيفية، مرّت بالصدفة.

ألقى إليه بسيجارة، والرجل في الأسفل يشير إليه بيده وكأنه يقول له "لا". كان الكاتب يحاول أن يفهم ما يقوله الرجل في الأسفل، وفي الوقت نفسه أطلق بصره متتبّعاً مسار سقوط السيجارة كما اعتاد أن يفعل مع أعقاب سجائره. بنحو ما، أراد أن يؤجّل الحَيْرة إلى حين ينتهي من تدخين سيجارته. ربمّا كانت طريقة غبية لتأجيل أيّ شيء، ولكنها كانت طريقته هو.

وما إن فعل ذلك، لاحظ الكاتب أن يد رجل القمامة سوداء. وحين أمال بصره أكثر، أدرك بأن وجهه كان أسود أيضاً، وبالملامح نفسها .. ملامح غريبا.

حينها وفي تلك اللحظة فقط، أدرك الكاتب الحقيقة التي جعلتْهُ يشعر سابقاً بتلك الألفة الغريبة التي طالما تملّكتْهُ كلّما نظر إلى صورة الزّنجيّ التي اقتناها من بائع التحف القديمة في تقاطع شارعَي بيجو وديزلي. لم تنطق الصورة وقتما أصرّ على سؤالها من قبل، وما كانت لتفعل، فقط لأنها كانت صورته وصورة كل واحد من المدينة الدولة، فكما تنأى البديهية عن كل إثبات، لم يكن هو أو أيّ أحد من المدينة الدولة ليسأل عن حقيقة كانوا مقتنعين في أعماقهم بها، وهي أنهم عبيد في دولة، تمتهن النخاسة.

وإذ ذاك، شعر الكاتب بما يشبه السكينة، بمجرّد أن تصالح مع ذاته. لم يعد خائفاً كما كان من انعكاسه، وقد عاد إلى حاسوبه، وظهر له أن روايته انتهت بمجرّد أن رأى نفسه كما يجدر بأيّ عبد أن يرى ذاته.

فتح ملفّ الرواية مجدّداً على صفحة بيضاء لم تكن تحمل إلا اسم الرجل صاحب اسمه كما اعتاد أن يفعل في كل رواية كتبها من قبل.

هذه المرّة، بدا الاسم وكأنه اسم غير حقيقي، ومن دون معنى.

ابتسم وقد خطر على باله أن يُعوِّضه باسمه الحقيقي، تماماً كما ظهر بوجه غريجا الذي لم يكن إلا وجهه، منذ قرّر والده أن يغرسه في بطن أُمّه، وربمّا منذ كان مجرّد كلمة في السماء، وقد كتبها الله منذ الأزل.

محا اسم الرجل صاحب اسمه، وكتب مكانه اسمه وهو ينظر إليه لأوّل مرّة في بداية كتاب، لم يعتقد أن بمقدوره كتابته بهذه الطريقة. وفجأة وكأن أحداً همس إليه في أذنه، تحرّكت أصابعه على لوحة المفاتيح، وكتب عنوان روايته أخيراً.

في النهاية، اتّكأ الكاتب على كرسيّه، وباعد بين وجهه وشاشة حاسوبه، وقرأ ما على الصفحة الأولى، مُحدِّثاً نفسه بمثل ما كان يتفوّه به جمال حميدي "انتابني شعور غامض بحدوث ذلك".

ضحك بمجرّد أن انتهى في رأسه من قول هذه الجملة، وهو مدرِك أنه لم يهمس لنفسه بها إلّا لأنه استمتع بروايته على نحو لم يضاهه إلا استمتاعه بقراءة الصفحة الأولى من كتابه.

وكانت السادسة صباحاً حين أغمض الكاتب عينَيْه، ليكون آخر ما

يرى شاشة حاسوبه مفتوحة على ما صنع بهجته قبل أن يغطّ في النوم. قرأ وجفناه يُطبقان:

تمّت في الجزائر العاصمة

مقهى لؤي/ ترولار / ٢٤ يناير ٢٠١٩

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

تم الطبع من طرف متيجة للطباعة - الجزائر

من الكتاب

...« في لحظة اختارها الأرباب بعناية توقّف عن الظهور، لتحلّ محلّه صورة كبيرة في إطار ذهبي، كانت تُعلَّق في كل مكان، يُفترَض أن يتواجد فيه، حتّى ساد في اعتقاد الناس أنه منشغل بمشاكلهم، إلى درجة أنه لم يعد بمقدوره الظهور، ثمّ حين بدأ الرجل الوسيم في نشرة الأخبار، يقرأ في كل ظهور له، رسالة أو بياناً للإله الرئيس، شعر الناس بطمأنينة كل مؤمن بحقّ، فحتّى الله وهو الله، لم يظهر لأحد بوجهه، واكتفى لهداية الناس بما كان يرسل إليهم من رُسُل وأنبياء، يحملون كلمته الطاهرة وكُتُبه المقدّسة. »...

[منشورات البرزخ]

منشورات المتوسط

جريئة، صادمة، وتقرأ مُستقبلاً يحدثُ الآن. هي رواية تنبُّؤية، تعيدُ صياغة تاريخ الجزائر السياسي ومنه التاريخ العربي بأسلوب ساخر، يستمد مادته من عوالم فانتازية تحاكي الواقع، بحيث تحكي عن وطن تختفي فيه الأبواب لتنمحي الحدود الفاصلة بين الداخل والخارج. تمضي الرواية في رصد حيواتٍ تتقاطع وتتناسخ حسب السيناريوهات المحتملة للمشيئة في عاصمة الجزائر، أو «المدينة الدولة» التي نقرأ قصَّتَها في قصة جمال حميدي، وزوجته السابقة أولغا، وموح بوخنونة، وإبراهيم بافولولو، وغيرهم ممَّن تتقاطع حكاياتهم مع مصير الانفجار الأعظم لقيامةٍ تأخَّرت عشرين سنة.

رواية «سلالم ترولار»، هي رواية الواقعِ الذي يتجاوز المُخيِّلة، وخيالِ الكاتب الذي يصنعُ واقعاً موازياً يتفوَّقُ فيه على ملهاة الشعوب العربية في ربيعها الممزَّق، فيصنع ملحمةً ساخرة، تُشبه ملاحم الأدب الكبرى التي تقع وجهاً لوجه مع السياسة. رواية تبعث متعة فريدة في نفس القارئ، ولكنها في نفس الوقت تشعرهُ بألمِ الوطن المغتصب الذي أحسن الكاتب وصفه في شخوصٍ تشبه المسوخ، نسج من خلالها نصّاً ما بعد حدائيّ يستشرف الثورة.

ISBN : 978-9931-04-067-5
9 789931 040675
[منشورات البرزخ]
www.editions-barzakh.com
السعر : 700 دج